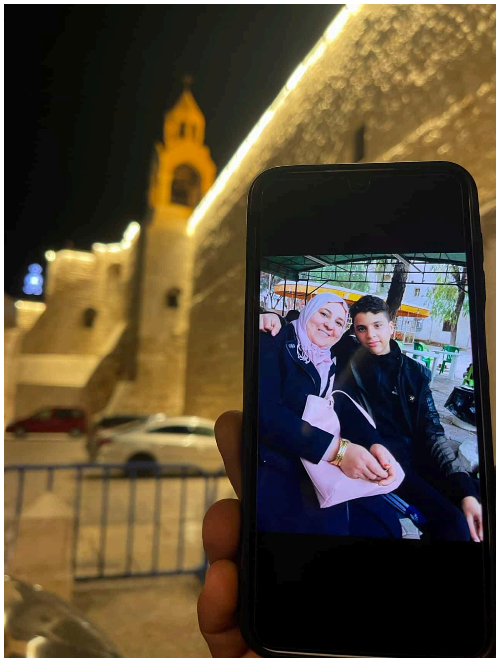
ظل الشهيد

محمد خليل فجراوي



بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا المجاهد الشهيد محمد ابن عبد الله، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

مقدمة الكتاب
عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله» (رواه البخاري).

فأكتب هذا الكتاب الذي سيصدر في يوم ميلاد الشهيدة مفيدة، هدية لها ولكل شهداء أمة الأمين نبينا ورسولنا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك لكل من تعلقت أفئدتهم بأرض الإسراء والمعراج، وكل من يتمنى الشهادة، لا حرمنا الله وإياكم نيلها وجزاءها.

بسم الله الرحمن الرحيم
{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)}

سبحان رب العباد الذي أكرمني بأن أصلي وخلفي الشهيدة، وسبحان من يسر لساني لتلاوة ما تيسر من الآيات الكريمة من سورة مريم، وكان ذلك في رمضان سنة 1445 هجري، قبيل استشهاد أماه بليالٍ.

فنحمده جل وعلا أن جعلني باراً بوالدتي، ولم يجعلني جباراً شقياً، وأسأله أن يرفع أماه أعلى الدرجات، وأن يجعل كل عمل وخطوة صالحة أقوم بها في ميزان حسناتها.

اللهم آمين يا رب العالمين.

ويا شهيد المستقبل، إن أردتها فلا تكتف بتمنيها، قم وانهض واسعَ لها سعيها، فبارك رب العباد في من كان سعيهم مشكوراً.

أمي كانت جنتي... وكانت كل شيء

لم تكن أمي مجرد إنسانة عابرة في حياتي، بل كانت الحياة نفسها. كانت النور الذي يسبق خطواتي، والدفء الذي يحتضن أيامي، والصوت الذي يطمئن قلبي حين يضطرب العالم من حولي. كانت كل شيء... بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

أمي لم تكن فقط من أنجبتني، بل كانت من صنعتني. علمتني كيف أمشي، ثم كيف أقف، ثم كيف أواجه الحياة بكل ما فيها من قسوة. كانت أول معلم، وأصدق صديق، وأحن قلب عرفته في هذا الوجود. كانت ترى فيّ ما لا أراه في نفسي، وتؤمن بي حين يخونني يقيني.

كنت أراها قوية، لا تنكسر، صابرة، لا تشتكي، مبتسمة حتى في أصعب اللحظات. لم أكن أدرك أن خلف تلك الابتسامة ألف تعب، وأن وراء صبرها بحراً من الألم الذي كانت تخفيه حباً لنا.

لكنها رحلت...
رحلت وتركت فراغاً لا يُملأ، ووجعاً لا يُوصف. أصبحت الأيام باردة، والليالي أطول، والضحكات أقل صدقاً.

أمي...
إن كنتِ بعيدة عن عيني، فأنتِ أقرب ما يكون لقلبي.
رحمكِ الله وجعل مأواكِ الجنة، كما كنتِ جنتي في الدنيا.

اللهم ارحم أمي برحمتك الواسعة، واجعلها في عليين مع الشهداء والصالحين، واجمعني بها في الفردوس الأعلى.

الفصل الأول : مفيدة
(رحيل النور)
23 رمضان 1445 هجري

كان يوماً عسيراً، كيف لا وهو اليوم الذي فارقتنا فيه أماه؟ كيف لا وهو اليوم الذي التقت فيه روحها الطاهرة بربها، فصارت شهيدةً في عليين؟

في العشر الأواخر من رمضان، كنا ننتظر خبر شفائها بقلوب معلقة بين الرجاء والقدر. كنا نرجو أن تعود إلينا، ولكن الله شاء أن تعود إليه، فهو خير مستقر ومآب.

صبيحة اليوم الثالث والعشرين، كانت أماه معنا وليست معنا. جسدها بين أيدينا، وروحها تسبح في ملكوت السماء. فقد كانت منذ ليلة الأمس في عالم آخر، عالم لا يراه إلا من يُوشك على الرحيل.

قبل أن نودعها، همستُ في أذنها وأنا أمسح على جبينها الطاهر:
"رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي".

فاستمتعت لي، وطأطأت رأسها قليلاً، كأنها كانت تسمع، كأنها كانت تقول لي: "سمعتُ يا بني، وربي معك".
وكانت هذه آخر كلماتي إلى أماه، وكانت آخر مرة تسمع فيها صوتي في هذه الدنيا.

ذاكرة أخيرة قبل الرحيل
في الأيام القليلة التي سبقت استشهادها، كنا نستعد لشراء لباس العيد لأخي الصغير أمير. دخلت عليها في غرفتها، وكانت تجلس بهدوء، كأنها تودّع الجدران بصمت.

وضعت يدها الدافئة في يدي، ونظرت إلي بعينين تفيضان حباً، وقالت بصوت خافت لكنه كان كالنجمة في السماء:
"نحبك برشا" – نحبك كثيراً.

بقينا ممسكين بأيدينا، لا نريد أن نفترق. كان الصمت الذي بيننا أبلغ من أي كلام. ثم خرج أبي وأخي من البيت، وأنا لا تزال يدي بيد أماه. فقالت لي: "الحق بهما يا بني".

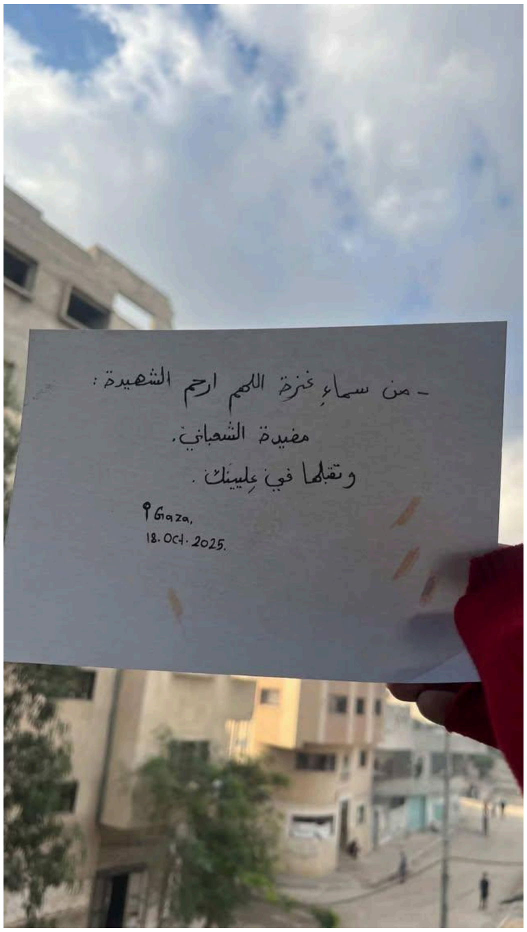
خرجتُ من الغرفة، وأنا أضغط على قلبي بيدي كي لا يخرج من صدري. أخبئت الدموع خلف جفوني، وتمالكت نفسي. وعندما خرجتُ من البيت، انهارت كل السدود. أخذتُ أمسح وجهي وعيني، وأقول في نفسي وأنا أرتجف:

"هل هذه هي الوداعية؟ هل هذا هو الوداع؟"

لم أكن أعلم أن تلك اليد التي أمسكتها للمرة الأخيرة، لن تعود إلى يدي أبداً إلا في الجنة. كان البيت ثقيلاً صامتاً، كأن الجدران كانت تعلم ما لم أكن أعرفه: أن أماه كانت تودّعنا بصمت، وترحل بجسدها بينما تبقى روحها معلقة في سمائنا إلى الأبد.

بعد الرحيل

صباح يوم 18 أكتوبر 2025، كنتُ ربما أسعد الناس في العالم... ولكن سعادة ناقصة، سعادة كاذبة بعض الشيء.



لم لا وأنا أتلقى هدية لروح الشهيدة مفيدة من قلب غزة العزة والصمود؟ هناك، حيث ترفع الدعوات إلى السماء برائحة التراب والدم والياسمين، وصلتني هدية لأمي.

لكن الحقيقة يا أماه... لم أشعر بالسعادة الحقيقية منذ رحيلك. كل ما شعرت به كان مجرد ومضات خفيفة، كالبرق في ليلة عاصفة، يلمع للحظة ثم يختفي.

تلك الهدية من غزة... فرحت بها، نعم. بكيتُ وأنا أمسكها بين يدي، وقلت في نفسي: "أماه ما زالت تحبني من السماء". لكن في العمق، كنتُ أعرف أن هذه الهدية لن تعيدكِ إليّ، ولن تملأ الفراغ الذي تركتهِ خلفكِ.

فكانت فرحتي بها فرحة مشبوهة، مخلوطة بالحزن، ممزوجة بالدموع. سعادة لا تشبه سعادة الماضي، سعادة منقوصة، كأنها ظل السعادة لا السعادة نفسها.

أماه... حتى بعد رحيلك، ما زلتِ تجمعين الخير. وما زلتِ سبباً في أن يهديني الله أشخاصاً طيبين من بلاد بعيدة، يدعون لكِ ويُكرِمونني باسمكِ.

لكن كل هدية تأتيني، أقول في قلبي: "لو كانت أماه هنا لفرحت أكثر. لو كانت هنا لرأينا الدموع في عينيها فرحاً".

وهكذا تكون الشهيدة... وهكذا يكون ابنها
وهكذا تكون الشهيدة: تموت جسداً، وتبقى روحاً تسافر في القلوب. تموت في الدنيا، وتُولد في الدعوات. تترك الجسد للتراب، وترفع الروح إلى السحاب.

وهكذا يكون ابن الشهيدة: يعيش نصف حياة، ويضحك نصف ضحكة، ويفرح نصف فرحة. أما النصف الآخر، فمات مع أمه ودفن معها تحت التراب.

فيا أماه، إن غبتِ عن عيني، فأنتِ في دمي وروحي وفي كل نبضة من نبضات هذا القلب الذي علمتِه كيف يحب. وما الهدية التي وصلتني من غزة إلا دليل واحد من ألف دليل، على أن الطيبين يهدي بعضهم بعضاً، حتى وإن كانوا في السماء.

ولكنها تبقى هدية منقوصة... كما أنا منقوص بعدكِ. كالقمر في ليلة ليست بدراً، كالوردة التي فقدت بعض بتلاتها، ككتاب تنقصه فصوله الأخيرة.

فلا تسألني يا رب عن سعادتي بعد أماه، واسألني عن صبري. فلستُ سعيداً، ولكني صابر، مستسلم لقضائك.

فيا رب، اجعل هذه الهدية من غزة شفيعاً لأماه يوم القيامة، واجعلها سبباً في رفع درجاتها، لا سبباً في زيادة حزني.

هنيئاً لكِ يا أماه، فأنتِ اليوم في روضة من رياض الجنة.
لا خوف عليكِ اليوم ولا حزن، فذكراكِ ليست ذكرى عابرة، بل قصة تُروى، ودعاء يُرفع، وحياة تُعاش.

اللهم اجعل قبرها روضة من رياض الجنة، ونوراً من نورك لا ينطفئ.

وأما أنا يا رب... فأعطني من الصبر ما يعينني على هذا الفراق، واجعل لي من كل هدية نصيباً من السلوى، ومن كل دعاء نصيباً من القبول إنك على كل شيء قدير.
أول خريجة في العائلة: في شهر رحيلك
ونحن اليوم على أعقاب حفلة أول خريجي العائلة: اختي.

نعم يا أماه، أختي بشرى تخرجت. أول خريجة في العائلة. كانت تحلم بهذا اليوم وأنتِ معنا، وكانت تتمنى أن تضعي قبعة التخرج على رأسها بيديكِ.

لكن القدر شاء غير ذلك.

وفي هذه الأيام من هذا الشهر... شهر أفريل.
نفس الشهر الميلادي الذي رحلتِ فيه يا أماه.

نعم، نفس الشهر. نفس الرائحة في الهواء، نفس الضوء الذي كان يملأ البيت وقت رحيلك، لكن دونكِ.

ونحن اليوم، مشاعرنا مختلطة، لا تفهم. فرحة بالختي، وحزنة بغيابك. ضاحكة بالنهار، باكية بالليل. نحتفل ونبكي في آن واحد، وكأن قلوبنا صارت تعرف لغة لم نتعلمها من قبل: لغة الفرح المخلوط بالوجع.

فنحن يا أماه... كم نحن بحاجة لوجود روحك وجسدك معنا اليوم.

كم نحتاج إلى يد تمسح على رؤوسنا، وصوت يقول لنا: "أنا فخورة بكم".
كم نحتاج إلى نظرة من عينيكِ تطمئن قلوبنا بأن الفرح مكتمل، وأن النقص الذي نشعر به ليس حقيقياً.

لكن... لا بأس.

فكما قال الله: {فإن مع العسر يسراً}.
وكما علمتِنا يا أماه: "عند الله خير وأبقى".

فإن غاب جسدكِ، فروحكِ لا تزال موجودة بيننا. حاضرة دوماً ما حيينا.

روحكِ في البيت، في الزيتون، في المكتبة، في السيرك، في كل ضحكة تخرج من فم أخي أمير، في كل دمعة تسقط من عيني وأنا أكتب هذه الكلمات.

فكوني معنا يا أماه في حفلتها... لا بجسدكِ، بل بروحكِ التي لم تفارقنا لحظة. وادعيلها من عليين، فدعاء الشهيدة مستجاب، ودعاء الأم لابنتها يخرق السماوات.

أختي تخرجت يا أماه... أختي التي كنتِ تحملينها صغيرة وتهمسين في أذنها: "كبرِي تصبحي دكتورة". لم تصبح دكتورة بعد، لكنها أصبحت إنسانة تليق بكِ. وهذا هو أكبر إنجاز.

فاسألي الله لها التوفيق، واسأليه أن يجمعنا بكِ في الفردوس الأعلى، حيث لا فراق ولا حزن ولا امتحانات ولا خريجات بلا أمهات.

رحمكِ الله يا أماه، وهنيئاً لأختي تخرجها، وهنيئاً لكِ بابنتكِ التي رفعتيها ليكون لها شأن.

يوم 5 أفريل 2021
افتتاح مكتبة الأمير
(حوار بين أم وابنها)
في يوم 5 أفريل 2021، فتحنا مكتبة الأمير.



كنت أقف أمام باب المكتبة لأول مرة، وأنا أتأمل اللافتة التي حملت اسماً لم أختره وحدي، بل اخترناه معاً أنا وأماه. نعم، كانت أماه هي صاحبة المشروع، ولكنها كانت تستشيرني في كل كبيرة وصغيرة، وتثق برأيي كأنني شريكها في الحياة قبل أن أكون ابنها.

أتذكر ذلك المساء وكأنه الآن...

جلست أماه أمامي، وبين يديها ورقة بيضاء، وعيناها تلمعان بحماس الطفولة وهي تقول لي:
"يا بني، أريد اسماً للمكتبة. أعطني اقتراحاتك".

فكرتُ للحظة، ثم قلتُ لها بثقة:
"أماه، هناك اسمان كانا في بالي: 'خليل' و'أمير'..."

لكني قبل أن أكمل جملتي، وبلا تردد ولا تفكير طويل، قلتُ لها مباشرة:
"بل أمير... أمير يا أماه".

نظرت إليّ أماه بشيء من الدهشة والفرحة معاً، وسألتني:
"ولماذا أمير يا بني؟ ولماذا بهذه السرعة؟"

فأجبتها، وقلبي ينبض بحب أخي الصغير:
"لأن أمير ليس مجرد اسم جميل يا أماه... أمير هو أخي. هو الذي يضحك في البيت فيملؤه نوراً. هو الذي إذا غضبنا أرضانا، وإذا ابتسم أشرقت الدنيا. أردتُ أن يحمل مشروعكِ المبارك اسمه، ليكون له نصيب من البركة، وليرى عندما يكبر أن أمي وأخاه فكّرا فيه قبل أن يفكر في نفسه".

سكتُّ لحظة، ثم أضفتُ وأنا أشعر بدموع الفرح تغشاني:

"ولأني يا أماه... أحب أن أرى الفرحة في عيني أمير. وعندما سيرى اسمه على المكتبة، سيعرف أنه محبوب، وأن لنا فيه مشروعاً مشتركاً يجمعه بنا حتى بعد أن يكبر".

سكتت أماه لحظة، ثم أمسكت يدي بقوة، ونظرت في عيني نظرة من لا يخفي حباً، وقالت بصوت مرتعش:
"إذاً... ستكون 'مكتبة الأمير'. بارك الله فيك يا بني، وفي أخيك أمير، وفي هذا المشروع المبارك. لقد جعلتني أحب الاسم أكثر مما تتصور".

وكذلك كان. حملت المكتبة اسم أمير، وفرح أخي الصغير فرحة لم أنسها. ركض في البيت يصرخ: "المكتبة باسمي! المكتبة باسمي!"، وأمي تنظر إليه وتضحك، وأنا أنظر إليهما وأشعر أن الدنيا كلها لا تساوي هذه اللحظة.

واليوم يا أماه، بعد أن رحلتِ، عندما أمر أمام مكتبة الأمير، أسمع ضحكة أمير الصغير في صدى جدرانها. وأتذكر كيف أن اسمه الذي اخترته بلا تردد، أصبح الآن ذكرى تجمعنا كلنا: أنتِ في السماء، وأمير على الأرض، وأنا بينهما أحرس الذكرى بدموعي ودعائي.

ومما يذكرني بكِ يا أماه في المكتبة والتجارة...
(وكنتِ أنتِ خير تاجرة)
ومما يذكرني بكِ يا أماه، ويُعيدني إلى أيام المكتبة وحديث التجارة...

كنتِ أنتِ يا أماه خير تاجرة، كنتِ التاجرة الأمينة في زمن أصبحت فيه الأمانة نادرة، والناس يركضون خلف الدرهم والدينار، ويُهمِلون ما عند الجبار القهار.

كنتِ يا أماه صاحبة القلب الرحيم، رحيمة بكل من أتاكِ، حنونة تريدين أن تربحي الله قبل أن تربحي المال. كانت يدكِ ممدودة بالعطاء قبل أن تكون ممدودة بالأخذ، وكنتِ تبتغين وجه الله في كل بيع وشراء.

أماه... في زمن جعل الناس فيه التجارة حرباً ضارية، جعلتيها أنتِ رحمةً وسماحةً. وفي زمن جعلوها غلبةً وظلماً، جعلتيها أنتِ خدمةً وإكراماً.

دروس في التجارة من مدرسة أماه
إن أكثر التجار في زماننا هذا يركضون وراء حاجة دنيوية زائلة لا ترضي رب العالمين، حتى أنهم يرفضون جبر خاطر الزبون إن أراد استبدال سلعةٍ ما.

نسوا أن الله يبعد عنك عثرة يوم الحساب فقط لأنك أبعدت عن الزبون حيرته وندمه.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"من أقال مسلماً بيعته، أقال الله عثرته يوم القيامة".

ومن المنظور التجاري أيضاً، فإنك بسعيك لإرضاء الزبون لا تبيع منتجاً فحسب، بل تبيع أمانةً وثقةً وسمعةً طيبة.

والزبون نفسه، لو دار في مختلف بقاع الدنيا، لن يبتاع من أحد غيرك، وسيكون لك محامياً أمام الناس يشهد لك بالصدق والأمانة.

فبالبركة التي تنبع من جبر الخواطر، تفتح أبواب السماء مدراراً. فإن بركة جبر خاطر الزبون ستغطي ثمن المنتوج مئة مرة وأكثر.

فالتجارة ليست شطارة في غلب الزبون، ولا مهارة في خداع المشتري.
إنما التجارة شطارة في كسب الله في الزبون، ورضاه في المعاملة.

{ولكن أكثر الناس لا يعلمون}.

وصية أماه: ساعد المحتاج دون أن تسألني
وأنتِ يا أماه... لم تكتفي بأن تكوني قدوة في الكرم، بل كنتِ تعلّمينني كيف أكون مثلكِ.

كنتِ تأمرينني في المكتبة أن أساعد المحتاج، وأن أرفق بالزبون، وأن أكون ليناً معهم قدر المستطاع. كنتِ تقولين لي:

"يا بني... إذا جاءك ذو الحاجة، وسألك العون، فلا تنتظر حتى ترجع إليّ وتستأذنني. فأنا موافقة على كل خير، والله موافق على كل خير".

وكنتِ ترددين دائماً قول الله تعالى:

{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}

وتقولين: "هذا المال ليس ملكنا وحدنا يا بني. فيه حق للسائل الذي يسأل، وللمحروم الذي لا يسأل. فابحث عنهم بنفسك، ولا تنتظر أن يأتوك".

فكنتِ تعلّمينني أن العطاء ليس مجرد رد فعل، بل أسلوب حياة. وأن الخير ليس انتظاراً، بل بحثاً ومبادرة.

فاليوم يا أماه، وأنا أقف على مكتبة الأمير، أتذكر وصيتكِ كلما رأيت محتاجاً. لا أنتظر أن تأذني لي، بل أساعده وأنا أعلم أنكِ في السماء تبتسمين، وتقولين: "هكذا يا بني... هكذا علمتكِ".

اللهم اجعلني من الذين يؤتون الحق عن طيب نفس، واجعلني من الذين يساعدون المحتاج دون منّة ولا أذى. واجعل أماه شفيعة لي يوم القيامة، كما كانت معلمتي في الدنيا.

وأنتِ يا أماه كنتِ المثال الأسمى

وأنتِ يا أماه، كنتِ خير مثال على هذا النهج الكريم. لم أرَكِ قط تردّين زبوناً محتاجاً، ولم أرَكِ تتخاصمين على مليم تافه، ولم أرَكِ تغلّين سلعةً على إنسان فقير.

كنتِ تعطين لوجه الله، وتسمحين بالآلاف، وتجبرين خواطر الناس كأنكِ تطلبين منهم أن يرضوا عنكِ، وأنتِ التي لا تحتاج إلى رضاهم، ولكن قلبكِ كان لا يحتمل أن يخرج أحد من مكتبتكِ إلا وهو مسرور.

فاليوم يا أماه، وأنا أقف على مكتبة الأمير من بعدكِ، أتذكر كل درس علمتني إياه. أتذكر كيف كنتِ تقولين لي: "يا بني، الزبون ليس عدواً، الزبون أمانة ائتمنك الله عليها. أرضه يرضَ الله عنك" .

والله يا أماه، إني أحاول جاهداً أن أسير على دربكِ، وأن أكون من التُجّار الذين يربحون الله قبل أن يربحوا المال. فأعينيني بدعوة صالحة من عليين، فإن دعاء الشهيدة لا يُرد، ودعاء الأم لابنها مستجاب بإذن الله.

ذكرى ميلادها
أماه، قد دعوتِ الله مراراً، ولكني رأيتكِ مرةً في منشور على فيسبوك في يوم ميلادك، وكنتِ تقولين:
"كل عام وإنا إلى الله أقرب، اللهم اجعلني ذكرى طيبة عند كل من عرفني".

كان ذلك في 18 ماي 2019.

يا أماه، أكرمك الكريم باستجابة دعائك، بل جعلكِ ذكرى طيبة لكل من عرفكِ، ولكل من لم يعرفكِ. وأصبح الندم يتهاطل على كل من لم يعرف قيمتكِ.

وقبل ذلك بأربعة أيام، نشرتِ:
"وإن هاجت الأحقاد، قلبٌ كقلب الطفل يغتفر الذنوب، تودين الخير للدنيا جميعاً".

يا الله.

شوق لا يوصف
(طعام أماه، وصوتها، وكلماتها الأخيرة في المطبخ)
أكتب اليوم، وأنا لا أعرف كيف أصوغ لكم مشاعر اشتياقي لأكل طعام من طهي أماه. وقبل ذلك، لأسمع صوتها وهي تناديني بصوتها الدافئ الذي كان يملأ البيت حياة:

"خليل... بني... تعالَ خُذْ بايك"

أريد مشاركتكم بعضاً من هذه المشاعر، قدر المستطاع. ولكن هنالك مشاعر تُعاش ولا توصف، وتُبكى ولا تُكتب.

فيا أماه... ما أشد حاجتي اليوم إلى يد تمتد إليّ بطعام طهته، أو صوت يناديني باسمي كما كنتِ تفعلين. كل الأطباق في الدنيا لا تساوي رغيفاً خبزتِه يداكِ، وكل الأصوات لا تضاهي همسة من همساتكِ.

حكاية العلكة: يوم الجمعة 23 يناير 2026
في يوم الجمعة 23 يناير 2026، قدّم لي أبي قطعة علكة (شوينقومة). لا يزال يتذكر أن يأخذها مباشرة من باكو كلوريفيل. أخرجها من جيب قطعة ملابس كانت ترتديها الشهيدة.

فجمعت في يدي ذلك اليوم متناقضين: فرحة عارمة، وحزناً عميقاً.

سعدت لأنني سأمضغ شيئاً من عند أماه، ولو أنها لم تكن هي من اشترته أو أعدته. لكنه أثر تركته وراءها. سأمضغها، ويكتب لها الأجر إن شاء الله.

وحزنت... لأنني كنتُ أتمنى لو أن أماه هي من تضعها في فمي بيدها، كما كانت تفعل وأنا صغير.

ولا زلتُ أحتفظ بغلاف تلك العلكة (الكاغط). وأيضاً بقطعة علكة أخرى من جيب أماه. كأني أحتفظ ببقايا روحها في هذه الدنيا، أخاف أن أرميها فأرمي معها آخر ما تبقى منها بين يدي.

ذاكرة المطبخ: عندما علمتني أماه الطبخ
وأنتِ يا أماه... أتذكر كيف كنتِ تقفين بجانبي في المطبخ، وتعلمينني الطبخ. كنتُ صغيراً، وأيديّ لا تزال تخاف من النار، وقلبي يخاف من أن أخطئ.

كنتِ تمسكين يدي برفق، وتقولين: "هكذا يا بني... لا تخف... النار لا تحترق إلا من يستهين بها".

وكنت أقف إلى جوارِكِ، أتأمل يديكِ الماهرتين، وأتساءل: كيف لهاتين اليدين أن تصنعا كل هذا الحب وتحوله طعاماً؟

وكنتُ أنشدُ لكِ... نعم يا أماه، كنتُ أقف في المطبخ وأنا صغير، وأُنشِدُ لكِ تلك الأبيات التي كنتِ تُنشدينها لأخي الصغير أمير. كنتِ تبتسمين وأنا أُنشِدُ بصوتي الطفولي، وعيناكِ تلمعان بدموع الفرح.

ذلك اليوم الذي كسرتِ فيه قلبي بكلماتكِ
وفي أحد الأيام، وأنا أُنشِدُ لكِ تلك الأغنية نفسها، نظرتِ إليَّ بهدوء، وقلتِ لي بنبرة فيها حنين وأسى:

"أُنشِدْها أنت لأولادك يا بني... أنا ما عادَشْ صَبِّي"

أماه... تلك الكلمات سكنت في قلبي ولم تُغادره منذ ذلك اليوم.

كأنكِ كنتِ تودّعين طفولتي، وكأنكِ كنتِ تقولين لي: "كبرتَ يا بني، وأنا كبرت... وحان أن تحمل أنت الأغنية لأبنائك من بعدي".

بكيتُ في قلبي ذلك اليوم، ولم أظهر لكِ دمعتي. ابتسمتُ لكِ وقلتُ: "حاضر يا أماه" ولكن داخلي كان يصرخ: "لن أكبر أبداً عن حبكِ، ولن تعجزي أبداً عن كونكِ أمي" .

والآن يا أماه، بعد أن رحلتِ... لم أعد أستطيع الدخول إلى المطبخ دون أن أراكِ واقفة هناك. لم أعد أستطيع تقطيع بصلة دون أن تدمع عينايَ ليس من البصل، بل من ذكرى يديكِ.

وكلما وقفتُ أمام النار، تذكرت قولكِ لي: "لا تخف... النار لا تحترق إلا من يستهين بها". وأنتِ يا أماه، لم تستخفّي أبداً، لكن النار التي أحرقت قلبي هي نار فراقكِ.

فيا رب، بلّغ أماه مني أني لا أزال أغني تلك الأغنية... لا لأولادي بعد، بل لروحها كل ليلة قبل أن أنام.

لن أنسى يا أماه كرمكِ

بينما كنا في جولة في كورنيش بوجعفر، إذ ألمّت بنا امرأة تسأل المال. نظرتِ إليها، ثم إلى حقيبتكِ.

لم تكن في محفظتكِ عملات معدنية صغيرة تلك اللحظة، بل أوراق نقدية ذات قيمة أعلى. لكنكِ يا أماه لم تترددي للحظة، ولم تنظري إلى قيمة الورق بقدر ما نظرتِ إلى حاجة تلك المرأة.

فتحتي حقيبتكِ بهدوء، وأخرجتِ مقداراً من تلك الأوراق، وناولتيها إياها وكأنكِ تقدمين هدية لضيفة عزيزة.

لم تكن تملكين الكثير، لكنكِ كنتِ تعطين وكأنكِ أغنى الناس. ولم تكن تنتظرين شكراً، بل كنتِ تنظرين إلى السماء وتقولين في سركِ: "اللهم إنها إليك".

فالورق النقدي في يديكِ يا أماه كان أخف من الريشة، والمال في قلبكِ كان أثقل بالبركة منه بالقيمة. كنتِ تعطين الورق، وتتركين في النفس أثراً لا تمحوه الرياح.

ولن أنسى لكِ يا أماه موقفاً آخر، يروي كرمكِ الذي لم يعرف الحدود.

أتذكر يوماً، وأنا صغير بعض الشيء، كنتُ في مطعم بمدينة الرديف جنوب البلاد التونسية. وإذ بي ألتقي برجلين من دولة شقيقة، من الجزائر الحبيبة.

كانا خائفين، يتلفتان يمنة ويسرة، وقلقهما يظهر على وجوههما. اقتربتُ منهما، وإذا بهما يخبرانني أنهما لا يعرفان أين سيقيمان تلك الليلة. لم يجدوا مكاناً يأويهم بعد أن أغلقت الفنادق أبوابها، والغربة تثقل على قلوبهما.

لم أتردد لحظة. ركضتُ إلى أماه وأخبرتها الخبر، وقلبي يخفق ألا ترفض، فالبيت ليس كبيراً، ونحن لسنا أغنياء.

لكنكِ يا أماه، نظرتِ إليَّ بعينين لا تعرفان البخل، وقلتِ لي دون تردد، وكأنكِ تنتظرين هذه الفرصة لتُري العالم معنى الكرم:

"يا بني... أحضرهما. لا مشكل. بيتنا بيتهما، وطعامنا طعامهما" .

عدتُ إليهما وقلت لهما بثقة، وأنا أشعر بالفخر بأمي:
"تعالا معي... بمجرد أن تنتهيا من قضاء حوائجكما، فوالله إن أمي تنتظركما، وقد أعدت لكما المكان".

الكرم عندكِ يا أماه كان في النية قبل الفعل. وفي الاستعداد قبل الحاجة. وفي أن يجد الغريب من يفتح له بيته دون أن يعرفه، ودون أن ينتظر شيئاً في المقابل.

فيا أماه... هكذا كنتِ. لا تسألين من يكون، ولا من أين أتى، ولا كم سيكلفكِ. كنتِ تفتحين الباب للجميع، وتقولين في سركِ: "لعل في هذا الأجر ما يرضي ربي".

فلا عجب أن أحبكِ الناس. ولا عجب أن الجزائريين والتونسيين وغيرهم يتذكرونكِ بالخير. فالكرم يا أماه لغة يفهمها الجميع، وأنتِ كنتِ أبلغ من تحدث بها.

رحمكِ الله يا كريمة، وأسكنكِ الفردوس الأعلى مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

حصاد الزيتون: يوم 12 ديسمبر 2025
(حين قطفتُ ما زرعته يداكِ)
في يوم 12 ديسمبر 2025، اتجهتُ نحو بيتنا الذي يقع في جنوب البلاد التونسية. لم أكن ذاهباً لزيارة عابرة، ولا لقضاء حاجة دنيوية. كنتُ ذاهباً لألتقي بأماه بطريقة أخرى... كنتُ ذاهباً إلى زيتونها.

زيتون زرعته يداكِ يا أماه. يداكِ الطاهرتان اللتان كانتا تمسحان دموعي، وتحملان طعامي، وتكتبان اسمي في قلبهما قبل كل شيء.

وصلتُ إلى الأرض، ووقفتُ بين الأشجار التي رأيتها تنمو أمام عينيها. كانت صامتة، لكني كنتُ أسمعها تهمس: "هذا هو أثر أمكِ... ها هو ذا ما زال حياً".

بدأت أقطف الزيتون حبة حبة. وكلما امتدت يدي إلى غصن، تذكرت يدها وهي تغرس هذه الشتلات الصغيرة قبل سنوات. كانت تقول لي: "يا بني، الزيتون شجرة مباركة. اخدمها تخدمك، واسقها تسقيك من ذكرى لا تجف".

واليوم يا أماه، أسقي الأرض بدموعي لا بالماء. وكل زيتونة أقطفها، أشم فيها رائحة يديكِ. وكل غصن ألمسه، أحس أنكِ ما زلتِ هنا، تراقبينني وتبتسمين.

بكيتُ وأنا أقطف. لا حزناً فقط، بل شوقاً ممزوجاً بفرحة غريبة. فرحة أنني أملك شيئاً منكِ لا يموت، وأثراً لا يزول. فالأشجار تبقى، والزيتون يُثمر كل عام، وأنتِ يا أماه تبقين في كل زيتونة تروي ظمأ بيتنا.

عدتُ إلى البيت وفي جعبتي قنينة زيت. زيت من شجر أماه. لن أستخدمه في الطبخ فقط، بل سأمسح به على رأسي وصدري، وستكون قطرة منه على جرحي أعظم دواء. لأنه ليس زيتاً عادياً... إنه زيت البركة، وزيت الدعاء، وزيت الأمومة التي لا تجف أبداً.

فيا رب، بارك لنا في زيتون أماه، كما باركت لها في عملها وذرّيتها. واجعل كل قطرة زيت منه شفاءً لكل داء، وذكرى لكل حنين.

وكل عام وأنا أعود إلى ذلك البيت، وأقطف زيتون أماه، وأحدثها وأنا بين أغصانه. وأعلم أنها تسمع من عليين، وتراني، وتدعو لي كما كانت تفعل.

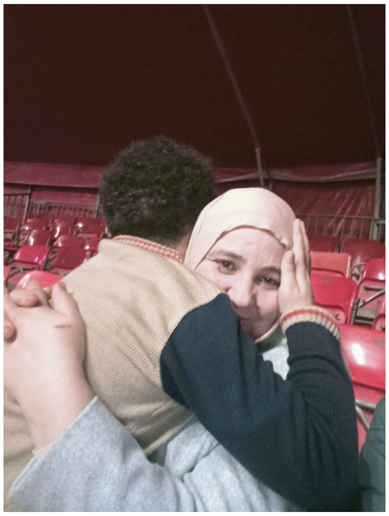
فما أحلى الأرض التي زرعتها يد أمي...
وما أطيب الثمر الذي نمى على حبها.



يوم السيرك: 6 جانفي 2024

في يوم 6 جانفي 2024، ذهبتُ أنا وأماه وأخي الصغير أمير إلى عرض سيرك في ولاية سوسة.





كان يوماً مختلفاً. لم يكن يوماً عادياً، بل كان يوماً كتبته السماء ليكون من أجمل أيام عمري، دون أن أدري أنه سيكون من آخر الأيام التي أرى فيها أماه تضحك بلا وجع، وتفرح بلا دمع.

كانت أماه سعيدة. لا، بل كانت فرحة فرحاً لا يوصف. فرحة وجودها مع ابنَيها في مكان كله دهشة، وأضواء، وألوان، وقلوب أطفال تصفق.

كانت تبادلني وأخي الأحاديث، وكأنها طفلة صغيرة تخوض مغامرة جديدة. كانت تتذكر، ثم تبتسم، ثم تشرح لنا، ثم تلتفت يمنة ويسرة كي لا يفوتها شيء.

"أتذكرون يا أولادي... أتذكرون السيرك القديم في قفصة؟"
قالتها وأعينها تلمع. نعم يا أماه، كنا صغاراً، وأنتِ كنتِ تمسكين بأيدينا وتخافين علينا من الزحام. كنا ننظر إلى البهلوان ونحن مذهولون، وأنتِ تنظرين إلينا وتضحكين.
وبينما كنا ننتظر بدء العرض، تحدثنا عن رأي طاطا بشرى، صديقة أماه العزيزة، في هذا السيرك.

كانت أماه متشوقة، تقول: "طاطا بشرى قالت لي إنه رائع... وإن العرض الجديد مختلف. أنا متحمسة جداً لرؤيته بأم عيني".

وكانت متحمسة حقاً. تتحرك على إيقاع الموسيقى، وتصفق بيدين لا تعرف التعب، وتضحك كأن الدنيا كلها لا تساوي هذه اللحظة التي تجمعها بابنيها.

عرض الدراجات النارية: ذاكرة قفصة لا تموت
وجاء عرض الدراجات النارية.

نظرت إليّ أماه بعينيها المليئتين بالحماس والذكرى، وقالت بصوت فيه فرحة الطفولة:

"صور لي يا بني... صور لي هذا العرض. لا تنسى"

فأمسكت بهاتفي، وبدأت أصور. لكن أماه لم تكتفِ بالمشاهدة. أرادت أن تقارن، أن تتذكر، أن تعيش لحظتين معاً: لحظة الحاضر، ولحظة الماضي.

قالت لي وفخر يملؤها:
"يا بني... عرض الدراجات في سيرك قفصة كان أجمل. كان أروع. كان فيه ثلاثة دراجين يا بني... ثلاثة**!** ليس اثنين فقط مثل اليوم. ثلاثة كانوا يدورون في قفص الموت، وقلوبنا كانت تخرج من مكانها".

ضحكتُ معها، لكن داخلي كنتُ أبكي. ليس من حزن، بل من جمال هذه اللحظة. أماه تتذكر... أماه تقارن... أماه تحكي... أماه هنا معنا، حية، ضاحكة، تطلب مني أن أصور لها، تنتقد عرض اليوم وتُفضّل عرض الأمس.

أماه يا أماه... لو كنتُ أعلم أن هذه السعادة ستكون من آخر ما أجمعه معكِ، لحفظتُ كل كلمة قلتِها، وكل نظرة أرسلتيها، وكل ضحكة أطلقتِها في ذلك اليوم.

يوم لا يُنسى
عدنا إلى البيت في ذلك المساء، وكانت أماه لا تزال تتحدث عن السيرك. كانت تفتح هاتفها وتشاهد المقاطع التي صورتها، وتعلق: "انظر يا خليل... انظر كيف قفز الدراج... لكن دراجي قفصة كانوا أشجع".

واليوم يا أماه، بعد أن رحلتِ... أعود إلى تلك المقاطع، وأشاهدكِ وأنتِ تبتسمين، وأسمع صوتكِ وأنتِ تقولين: "صور لي". وحينها أتمنى لو أنني صورتُ كل شيء في ذلك اليوم... صورتُ أنفاسكِ، صورتُ نبضكِ، صورتُ تلك السعادة التي كانت تملأ عينيكِ.

فيا رب، اجعل هذا اليوم من أجمل أيام أماه في الدنيا، واجعله شاهداً لها يوم القيامة بأنها كانت أماً تسعد بابنيها، وتصنع الذكريات لهم قبل أن ترحل.

وكلما رأيتُ سيركاً أو دراجات نارية، تذكرت يوم 6 جانفي 2024، وتذكرت أماه وهي تقول: "صور لي... كانوا ثلاثة يا بني... ثلاثة".

وهي تعلم يا أماه؟ حتى وأنتِ في السماء، سأظل أصور لكِ كل دراجات الدنيا، وسأظل أحكي لأولادي عن جدتهم التي كانت تعشق الحياة، وتحفظ التفاصيل، وتحب أن تبقى الذكرى حية إلى الأبد.
رحمكِ الله يا أماه، وجمعني بكِ في فردوس لا يفوتنا فيه عرض ولا تموت فيه ذكريات.

خر ملابس من أماه: قميص وجاكيت في زن سهلول
(حين ألبستني أماه للمرة الأخيرة)
وفي أيام رمضان التي سبقت استشهادكِ يا أماه... كان لي معكِ موقف لا أنساه. موقف لا يزال عالقاً في روحي كما علق ذلك القميص على جسدي.

اصطحبتيني إلى محل Zen في سهلول سوسة. كنتُ لا أرغب في اقتناء أي شيء. كل فكري وكل قلبي كان هناك، في مكان بعيد. كنت أريد فقط أن أساعد أهلي على توفير المال، وأن أسمع خبر شفائكِ. كنت مشغولاً بكِ، لا بالملابس. كنتُ أظن أن فرحي لن يكتمل إلا بصحتكِ، لا بثوب جديد.

لكنكِ يا أماه... فاجأتني. كما تفاجئينني دائماً. فاجأتني لأنكِ كنتِ تفكرين في مستقبلي بينما كنتُ أفكر في حاضركِ.

دخلتِ بي إلى المحل، وساعدكِ الأهل على اختيار لبس لي. كنتُ واقفاً كالجندي الذي لا يعرف ما يريد، لكن قائدته تعرف تماماً ما تريد.

ثم رأيتِ قميصاً (مريول) يناسبني. لم تترددي للحظة. لم تسألي عن الثمن، ولم تنظري إلى سعره. ذهبتِ إليه مباشرة، وأخذتِه بين يديكِ، وناولتِيه إليَّ، وقلتِ لي بصوت فيه حياة وفرح، وكأنكِ تهدينني عيداً قبل العيد:

"قيس يا بني... قيس" .

فقسّتُ يا أماه. قستُ القميص على جسدي، وقستُ حبكِ على قلبي. وكان القياسان متطابقين تماماً: كلاهما كانا مثاليين.

ثم رأيتِ الجاكيت
وبعد أن رأيتني مرتدياً القميص، وابتسمتِ ابتسامتكِ التي لا تُشترى، أضفتِ إليه جاكيتاً مناسباً. نظرتِ إليَّ من بعيد، وعيناكِ تلمعان كأنهما ترسمان لوحة، وقلتِ لي بصوت كأنه دعاء يخرج من قلب لا يعرف البخل:

"هاك يا بني... كملت. هذا لبسك" .

"هذا لبسك" ... ليس "هذا لبس جميل"، ولا "هذا قد يعجبك". بل "هذا لبسك" . كأنكِ كنتِ تقولين: هذا القميص خلق لأجلك، وهذا الجاكيت صنع ليكون على كتفيك، وأنا خلقت لأكون أمك.

فيا سبحان الله... دخلت المحل وأنا لا أرغب في اقتناء لبس. كنتُ هناك فقط جبراً لخواطر العائلة، ولأخذ فكرة. وإذ بأهلك يختارون لي، وإذ بكِ أنتِ تختارين لي أجمل ما في المحل. وكأنكِ كنتِ تقولين لي: "لا تظن أننا نعطيك من فضلنا... بل نحن نعطيك لأنك تستحق" .

كنتِ تفرحين بي وأنا أرتدي ما اخترتِ. وكنتِ تنظرين إليَّ كأنكِ ترسمين لوحة، وتضيفين إليها آخر لمساتكِ قبل أن تسلميها للدنيا. وكأنكِ كنتِ تودّعين جسدي قبل أن يودّعكِ جسدكِ.

سر الابتسامة التي لم أفهمها وقتها
والغريب يا أماه... أنني لم أفهم وقتها سبب فرحتكِ المبالغ فيها. كنتُ أظنها مجرد فرحة أم بابنها. لكنني اليوم، بعد أن رحلتِ، أدركتُ الحقيقة.

كنتِ تفرحين لأنكِ كنتِ تودّعينني بطريقتكِ الخاصة. كنتِ تختارين لي لباساً أذكره بعدكِ، وأرتديَه فأشعر أن يديكِ لا تزالان تلمسان كتفي. كنتِ تخبئين في جاكيت ذلك المحل رسالة لم أفهمها إلا بعد الرحيل: "ارتدِ هذا القميص حين تحن إليَّ... ستجدني فيه" .

وها أنا اليوم يا أماه... كلما أرتدي هذا القميص أو تلك الجاكيت، أشعر أنكِ معي. أشعر أن دفء يديكِ لا يزال في نسيجه، وأن عطركِ لا يزال عالقاً في أزراره. أتذكركِ وأنا ألبسه، وأدعو لكِ وأنا أخلعه، وأحلم بلقائكِ كلما رأيته معلقاً في خزانتي.

اللهم اكسها من لباس الجنة... حُلل سندس واستبرق. فكما كستني في الدنيا، فاكسها أنت في الآخرة من خير ما عندك. واجعل ما اشترته لي أماه من ملابس شفيعاً لها يوم القيامة، ونوراً يمشي بين يديها.

فقد قستُ يا أماه... ووجدت أن الحجم يناسبني تماماً. لكن الفراغ الذي تركتهِ خلفكِ... لا يناسبني أبداً. لا يناسبني غيابكِ، ولا يناسبني هذا البيت دون صوتكِ، ولا تناسبني هذه الدنيا دون حنان يديكِ.

فارقدي في نور القبر وضيائه، وكوني في قرار آمن، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

رحمكِ الله يا أماه، وجمعني بكِ في الفردوس الأعلى، حيث لا فراق ولا ثمن ولا ملابس تحتاج إلى اختيار. حيث نلتقي بلباس لا يبلى، وبنعيم لا يزول، وبحب لا يموت.



كرة الطائرة (volleyball): رياضة علمتني إياها (شجعتني، فأحببت)
وأنتِ يا أماه... كيف لا أذكركِ وأنا أذكر كرة الطائرة؟

فأنتِ كنتِ السبب، أنتِ كنتِ البداية. أنتِ من شجعتني على تعلم هذه الرياضة الجميلة، وأشعلتِ في قلبي حبها حتى صارت جزءاً من روحي، وهواية لا أفارقها.

كنتِ تشجعينني، وتصفقين لي، وتقولين:

"هكذا يا بني... كرة الطائرة ليست رياضة عنف، بل رياضة ذكاء وتعاون. تعلمها، وستعلمك الكثير".



فبفضلكِ يا أماه، تعلمت كرة الطائرة. وبفضلكِ، أحببتها حباً لا توصف.

كلما أمسكت الكرة بين يدي، تذكرت صوتكِ الحنون وأنتِ تشرحين لي كيف تعانق الأصابع الكرة كأنها طير يريد أن يحلق. وكلما خسرنا مباراة، تذكرت كلماتكِ الخالدة التي لا تزال نابضة في قلبي: "الخسارة يا بني ليست عيباً... العيب أن تترك يدكِ فارغة بعد أن كنتَ قادراً على المسك".
فأنتِ يا أماه لم تعلميني كيف أمسك الكرة فقط، بل علمتيني كيف أمسك نفسي حين تسقط. علمتيني أن السقوط ليس نهاية اللعبة، بل بداية جديدة بيد أنظف وعزم أشد.

يوم 20 أفريل 2026: حين رأيتُ أماه في الملعب
وفي يوم 20 أفريل، ذهبتُ لمشادة مباراة بين أحد الفرق التونسية وأحد الفرق الفرنسية.

كنت جالساً في المدرجات، قلبي يخفق مع كل كرة، وعيناي تتابعان اللاعبين وهم يتحركون كجسد واحد. لم يكونوا مجرد أسماء على قمصان، بل كانوا روحاً واحدة، يداً واحدة، قلوباً تضرب بإيقاع واحد.

وفجأة... تذكرتكِ يا أماه.

تذكرت كيف كنتِ تحبين الاجتماع، كيف كنتِ تحبين روح الجماعة، كيف كنتِ تعملين مع الآخرين كأنكم فريق واحد لا يهزم. تذكرت كيف كنتِ في المكتبة، في البيت، في المعهد، في كل مكان... تجمعين الناس حولكِ لا بالسلطة، بل بالحب.

ونظرت إلى الملعب، ورأيت اللاعبين يتعانقون بعد كل هدف، ويتشاورون بعد كل خطأ، ويصفقون لبعضهم البعض وكأن الفوز ليس غاية، بل وسيلة ليكتشفوا جمال الروح الجماعية.

انتهى الشوط الثالث، فتهاطلت الفرحة كالمطر على وجوه اللاعبين، وانصهرت الأجساد في عناق طال كأنهم يريدون أن يطبعوا هذه اللحظة على قلوبهم قبل أن تغادرهم. وكأنهم لا يصدقون أن النصر كان حليفهم بعد كل هذا العناء.

وهناك، في تلك اللحظة، تذكرتُ قولكِ لي يا أماه...
بينما كنا نشاهد نهائي مباراة كرة قدم مع بعضنا البعض على التلفاز في البيت، إذ قلتِ لي بعينين تلمعان: "ما أحلاها الفرحة... في كل شيء" .
ثم ذهبتِ للصلاة على ما أتذكر، وأنا أتحدث في قلبي: "والله صدقا... ما أجملها الفرحة في كل شيء" .

ونظرت إلى الملعب مرة أخرى، ورأيت الفرحة على وجوه اللاعبين والجماهير، وأدركت أن أماه كانت تعرف سراً لا يعرفه الكثيرون: أن الفرحة الحقيقية لا تأتي من الفوز فقط، بل من أن تفوز مع فريق تحبه، ومن أن تفرح مع من تحب.
وهناك، في تلك اللحظة، فهمتُ يا أماه... فهمتُ لماذا كانت كرة الطائرة (الفولي بول) رياضتكِ المفضلة. ليس لأنها مجرد لعبة، بل لأنها تشبهكِ. لأنها تعلم أن الفرد لا يساوي شيئاً بدون فريقه. لأنها تعلم أن الكرة لا تصل إلى الملعب الآخر إلا بعد أن تلمس أيدي كثيرة. لأنها تعلم أن المجد الحقيقي ليس في أن تسجل أنت، بل في أن تجعل من معك يسجلون.

فأنتِ يا أماه كنتِ كرة الطائرة التي تتنقل بين القلوب، لا تستقر في يد واحدة، بل تمر من قلب إلى قلب، تترك في كل يد أثراً، وفي كل صدر دعاء.

رحمكِ الله يا أماه، وجمعني بكِ في فريق لا يخسر، وفي ملعب لا يموت فيه اللاعبون، وفي لعبة لا تنتهي أبداً.

فكرة الطائرة بالنسبة لي ليست مجرد رياضة. إنها ذكرى أماه التي لا تموت. إنها روحها التي تدفعني لأن أكون أفضل كل يوم.

واليوم يا أماه، وأنا ألعب كرة الطائرة مع أصدقائي، أسمعهم يقولون: "ما شاء الله، خليل لاعب ماهر". وأنا أبتسم في سري، وأقول: "لو تعلمون من شجعني... لو تعلمون أن أماه هي من صنعت هذا اللاعب" .

فادعي لي من عليين يا أماه، أن أبقى لاعباً شريفاً، كما علمتني. رحمكِ الله يا معلمتي، يا مدربتي، يا أمي.

آخر مرة دخلت فيها قاعة رياضة: كانت معكِ يا أماه
(ما زلت أذكرها ولا زلت أبكيها)
لن أنسى يا أماه... لن أنسى أبداً.

أتذكر يوم ذهبتُ أنا وأنتِ وأختي إلى قاعة الرياضة (الجيم) في فندق Marhaba Occidental. كنا نتمرن معاً، نضحك، نتعب، ثم نضحك من جديد. كنتِ تشجعينني، وأنا أشجعكِ، وكأن الدنيا لا تسعنا إلا تلك القاعة الصغيرة.

وكنتُ يومها لا أعلم... لا أعلم أن هذه اللحظة ستكون آخر مرة.

نعم يا أماه... منذ تلك اللحظة وإلى اليوم، هي آخر مرة أدخل فيها قاعة رياضة. لم تَدُسَّ قدمي جيماً واحداً بعد رحيلكِ.

ليس لأنني كسول، ولا لأنني تخليت عن الرياضة. بل لأنني عاجز. عاجز عن دخول مكان جمعني بكِ وأنا أتنفس فيه أنفاسكِ، ثم أدخله وحدي. عاجز عن سماع صوت المعدن وهو يصطدم، دون أن أسمع ضحكتكِ بجانبي. عاجز عن التعرق والتعب، دون أن أراكِ تمسحين جبينكِ وتقولين لي: "برافو يا بني" .

كيف أتذكرها ولا أعود؟
كيف أتذكر تلك اللحظة المميزة... وقد كانت آخر مرة أتمرن فيها؟ آخر مرة كانت رفقتكِ يا أماه.

كيف أعود إلى قاعة الرياضة، وأنا أعلم أنكِ لن تكوني هناك؟ كيف أرفع الأثقال، وأنا أعلم أن يديكِ لن تصفقا لي؟ كيف أركض على العجلة، وأنا أعلم أن عينيكِ لن تتابعاني؟

فلم أعد قادراً... لم أعد قادراً على مواصلة المشوار دونكِ.

كل قاعة رياضة أرها اليوم، تعيدني إلى تلك اللحظة. إلى ذلك اليوم في Marhaba Occidental. إلى ضحكتكِ، إلى صوتكِ، إلى يديكِ التي كانت تمسك الزجاجة وتناوليني الماء.

فيا أماه... لا تلوميني. أنا لست ضعيفاً، لكنني أحببتكِ كثيراً. أحببتكِ لدرجة أن كل مكان جمعني بكِ صار مقدساً، ولا أستطيع دخوله دون أن أتفطر قلبي.

ربما يوماً ما...
ربما يوماً ما، سأعود يا أماه. سأعود إلى قاعة رياضة، وأتمرن، وأتعرق، وأتعب. لكنني سأشعر بكِ معي. سأشعر بأنكِ في الزاوية تبتسمين، وتقولين لي: "برافو يا بني... أنا فخورة بكِ".

وحينها، سأرفع يدي إلى السماء، وأقول: "هذا من أجلكِ يا أماه... هذا كله من أجلكِ".

رحمكِ الله يا أماه، وجعل الجنة مأواكِ. وجمعني بكِ في فردوس لا فراق فيه ولا دموع ولا ذكريات موجعة.

في السنين الأخيرة: حين غلب الحزن على وجهكِ البشوش
(وأمي تعتذر لأنها أحبت كثيراً)
وفي السنين الأخيرة... والشهور الأخيرة التي سبقت رحيل روحكِ الجميلة الحنونة، يا صاحبة الوجه البشوش، يا أماه...

كانت مشاعر الحزن غالبة عليكِ نوعاً ما. كنتِ تخبرينني أنا وأختي، ودمعتك تسبق كلمتك، أنكِ أهملتِ تعليم أخي الصغير أمير. كنتِ تقولين بحسرة تذيب الحجر:

"أنا متأسفة... متأسفة لأنني لم أتمكن من تعليمه، ولم أستطع أن أتولى به وأربيه كما علمتك أنت وأختك وكبرتكما. أنا كنت أريد أن أكون له كما كنتُ لكما... لكن الوقت والمرض ما سمحولي" .

وتقديم ما يجب أن تقدمه أم لأولاد تريد رؤيتهم في أعلى وأسمى المراتب... هذا ما كانت تتمناه لكِ يا أمير، وما آلمها أنها لم تستطع إكماله.

كنتِ ترددينها بحسرة، وكأنكِ تتحملين وحدكِ مسؤولية الدنيا. وكأن المرض الذي ألمَّ بكِ كان ذنباً اقترفته أنتِ، لا قدراً كتبه الله عليكِ.

تأثرتِ يا أماه... تأثرتِ حتى بلغ التأثر أقصاه. رأيتُ في عينيكِ مرة خوفاً على أمير، ومرة حزناً على نفسكِ لأنكِ لم تعودي قادرة كما كنتِ.

كنا نطمئنكِ... وكنا نجهل أنكِ تودعين
وكنا نحن يا أماه... نطمئنكِ. نقول لكِ: "لا يا أماه... لا تشيلي هم. أمير معنا، وسنعلمه، وسنربيه، وسنكون له كما كنتِ لنا" .

لكنكِ كنتِ تبتسمين ابتسامة حزينة، وكأنكِ تشكريننا على كلامنا، لكن قلبكِ كان يعلم شيئاً لم نكن نعلمه نحن.

كنتِ تعلمين أنكِ راحلة. وكنتِ تخافين عليه قبل أن تخافي على نفسكِ. وكنتِ تتألمين لأنه صغير، ولن ينسى أمه، لكنه لن ينسى أيضاً أنها كانت مريضة في آخر أيامها.

فيا أماه... لا تعتذري. لا تتحملي ما ليس لكِ. أنتِ أعطيتِ أمير ما لم تعطيه أم لطفل قبلكِ. أنتِ علمتِه الحروف الأولى، وغرسْتِ فيه حب الحياة، وتركْتِ له من الدعوات ما يكفيه عمراً كاملاً.

أما الوقت... فما لنا وله؟ الوقت بيد الله. وأنتِ يا أماه لم تهملي، بل أنتِ الذين أحببتِ حتى النهاية، وأعطيتِ حتى آخر رمق، واعتذرتِ لأنكِ لم تستطيعي أن تعطي أكثر.

رسالة إلى أمير من أماه
وإلى أخي الصغير أمير، الذي لم يفهم بعد لماذا رحلت أماه بهذه السرعة... سأقول له عندما يكبر:

"أمكِ يا أمير لم تهملكِ. كانت تحبكِ أكثر مما تتصور. وكانت تبكي لأنها لم تستطع أن تلعب معكِ كما تريد. ولأنها كانت تتمنى لو بقيتِ سنوات لتسمعكِ تقرأ القرآن، وتراكِ تخرج من الجامعة، وترى أولادكِ من قبلكِ."

"لكنها رحلتِ يا صغيري... رحلتِ وقلبها معلق بكِ. فلا تحزن، ولا تشك في حبها لحظة. فهي كانت تحمل همكِ في آخر أيامها، وكان آخر ما تألمت له هو أنكِ قد تشعر يوماً أنكِ أقل حباً من غيرك."

"والله يا أمير... أنتِ أكثر من أحبت. هي فقط لم تجد الوقت الكافي لتثبت لكِ."
اللهم اغفر لأماه ما أسفت عليه، وما ظنت أنها قصرت فيه. فهي لم تقصر يا رب، بل أنت تعلم أنها أعطت ما تملك، وجاهدت حتى نزل بها المرض، وودعت الدنيا وقلبها مع صغيرها.

اللهم اجعل ما شعرت به من حزن وتأسف في آخر أيامها، نوراً يضيء قبرها، ورفعة في درجاتها، وشفيعاً لها عندك يوم القيامة.

ويا أماه... لا تشيلي هم. أمير بخير. وسيكون بخير. وسيعرف أن أمه كانت طيبة، وأنها أحبته قبل أن يعرف معنى الحب. وسيدعو لكِ كل يوم، كما ندعو لكِ كلنا.

فنامي قريرة العين، مطمئنة الروح... فأنتِ في جنة لا حزن فيها ولا أسف ولا مرض.

يوم الرحيل: حين عرف أمير قبل أن أخبره
(وأمي ترفع رأسها للمرة الأخيرة)
ولكنني يا أماه... في الحقيقة، لست في حاجة لأن أرسل له رسالةً بعد اليوم. كيف لا وهو سبحان الله الذي نزل على قلبه الصبر، وفتح عليه العالم العليم فتوح العارفين؟

نعم يا أماه... لن أنسى أبداً تفاصيل يوم الرحيل.

بينما كنتُ أنا وأخي الصغير أمير لحالنا في البيت، تلقيت اتصالاً... اتصالاً شبه يؤكد أن رحيلكِ بعد ساعات قليلة. كنت أحاول أن أتحدث بهدوء، وأخبئ عنه ما أسمع.

لكنه تنصت. وفهم. وحاولت أن أخبئ عنه، لكنه فهم.

نظر إليَّ بوجه محمرّ، وعيناه تدمعان، وقال لي بصوت مبحوح، وأشار بيده الصغيرة إلى رقبته في حركة لا تُخطئ:
"خليل... معناها ماما (هكذا يشير بيده على رقبته كأنه يذبح)" .

ثم انهمر باكياً، بل انهمش بالصراخ. بكاء ليس كبكاء الأطفال، بل بكاء من عرف أنه سيخسر أعز ما يملك قبل أن يتمكن من التعبير عن حبه.

المغرب في الطريق: إفطار في رمضان ولحاق بسيارة الإسعاف
ولن أنسى عندما وصلنا إلى محطة في الطريق. استوقفنا الأذان لصلاة المغرب، وقد حان وقت الإفطار في رمضان. صلينا، وأفطرنا على عجل، ثم لحقت بنا سيارة الإسعاف.

فتحنا الباب... وكنا نجهل ما سنراه.

كنتِ أنتِ يا أماه... في عالم موازٍ. كأن جسدك كان هناك، وروحك في مكان آخر. لكن عندما فتحت أنا وأخي الباب، وتكلمنا:

"ماما... ماما" .

رفعتِ رأسكِ عالياً قليلاً... ما استطعتِ. وكانت تلك الإشارة الأخيرة. وكأنكِ تقولين لنا: "سمعتُكم. أنا معكم. لكني سأرحل الآن" .

نعم يا أماه... تمنيت لو قضيت معكِ وقتاً أكثر. لكن للأسف، أمرني المسعف بالخروج عاجلاً. وكنت للحظة الأخيرة لا زلت على أملٍ جزئي... أمل أن تعودي، أن تتنفسي، أن تبتسمي لنا مرة أخرى.

بشرى بين البكاء والمسؤولية
وتحدثت مع بشرى، أختي، في المحطة. قلت لها، وقلبي ينبض بالأمل المتبقي:

"بشرى... أيوجد إمكانية؟ ثقي بالله" .

وكانت بشرى بين البكاء والحزن والألم... وأيضاً بين الإحساس بالمسؤولية.

كانت تقول لي، وهي تحاول أن تتمالك نفسها، أن تمسح دموعها قبل أن تمسح دموعي:

"خليل... خليل... كل شيء بيد الله. لكن انتهى... علينا الآن أن نحاول التأقلم" .

كانت تحاول مواساتي، وهي التي كانت تحتاج إلى من يواسيها. كانت قوية لأنني كنت ضعيفاً. وكانت صامدة لأنها رأتني على وشك السقوط.

فيا أختي بشرى... لو قرأتِ هذه الكلمات يوماً، فاعلمي أنني لن أنسى لكِ وقفتكِ تلك. أنكِ كنتِ الحجر الذي استندتُ إليه في يوم تهاوت فيه الجبال.

يا أماه... أمير فهم قبل أن نُخبره. وعرف قبل أن ننطق. وشاهد ما لا يشاهده طفل في عمره.

لكنه اليوم بخير. وهو يدعو لكِ كل ليلة. وسيعرف عندما يكبر أن أمه لم تتركه، بل هي من حملته في قلبها وهي تغادر الدنيا.

فاللهم اغفر لأماه، وارحم ضعفها، واجبر كسرها، واجمعني بها وبأمير وبشرى وبجميع من نحب في جنة لا فراق فيها ولا بكاء ولا وداع.

ويا أماه... رفعكِ الله كما رفعتي رأسكِ في آخر لحظة. وجمعنا بكِ في عليين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

رحمكِ الله يا أماه... وجعل قبركِ روضة من رياض الجنة.

فرحة الفريق... وحسرة فقدانكِ
(ما أحلاها الفرحة... لكن بدونكِ)
ويا له من إحساس محزن... أن ترى فريقك المحلي المفضل يتوج بلقب جديد، وتتذكر أيام زمان.

أتذكر يا أماه... عندما كنا نجتمع كلنا، أنتِ وأبي وأختي وأمير وأنا، لنشاهد المباريات معاً. كنا نتبادل أطراف الحديث، ونضحك، ونلعب، ونشعر أن الدنيا كلها لا تساوي تلك اللحظات العائلية الدافئة.

نعم يا أماه... كنا نفرح معاً، ونحزن معاً. وكنا ننام وقد علقت في قلوبنا صور تلك الأيام.

أما اليوم... فرحة الفريق لا تكتمل. أشاهد المباراة وحدي، أو مع بعض الأصدقاء، لكن قلبي ليس هناك. قلبي معكِ. قلبي في الذكرى.

أشاهد الاحتفالات، وأسمع الزغاريد، وأرى الناس تعانق بعضها... فأتذكركِ. أتذكر كيف كنتِ تفرحين معنا، وكيف كنتِ تشاركيننا الضحكة قبل الهدف.

وأتذكر قولكِ الخالد، الذي ما زال يتردد في أذني كلما فرحتُ أو حزنتُ:

"ما أحلاها الفرحة... في كل شيء" .

كنتِ تعنين يا أماه... الفرحة الحقيقية. الفرحة التي تشارك فيها من تحب. الفرحة التي لا تكتمل إلا بوجود العائلة حولك.

واليوم... فرحتي ناقصة. وابتسامتي لا تصل إلى عيني. لأنكِ لستِ هنا لتقولي: "ما أحلاها الفرحة" .

فيا رب... بلّغ أماه أن فرحتي بها كانت دائماً، وأن فرحتي اليوم هي في ذكراها، وفي الدعاء لها.

رحمكِ الله يا أماه، وجمعني بكِ في فرحة لا تنقطع، وجنة لا تفارق.

سكرابل وبنت ولد... وكنتِ معلمتي في اللعب
(شكراً أماه على كل طريقة علمتِنا بها)
ولن أنسى يا أماه... عندما كنتِ تريدين أن توسعي معلوماتنا الثقافية بشتى الطرق، حتى باللعب!
كنتِ تحبين أن تشكلي حلقة حولنا، وتلعبين معنا "بنت ولد" أو "سكرابل" أو تلك الألعاب المثقفة التي كانت تجمع بين المتعة والفائدة.

أتذكر تلك الأمسيات... نتحلق حول الطاولة، وأنتِ توزعين الحروف، وتشرحين لنا الكلمات الجديدة، وتصححين لنا أخطاءنا بابتسامة لا تغادر وجهكِ.

كنتِ تقولين لنا ونحن نلعب:
"اللعب ليس للهو فقط يا أولادي... اللعب للتعلم أيضاً. فاستفيدوا من كل لحظة تمر بكم" .

وكنتِ تفرحين عندما نكتشف كلمة جديدة، أو نعرف معنى لم نكن نعرفه من قبل. كأنكِ تفوزين أنتِ باللعبة قبل أن نفوز نحن.

شكراً يا أماه... شكراً لأنكِ جعلتِ من اللعب مدرسة، ومن المدرسة متعة. شكراً لأنكِ علمتِنا أن نتعلم ونحن نضحك، وأن نكبر ونحن نحب المعرفة.

شكراً لكل حرف كتبتِه في عقولنا، ولكل معنى زرعتِه في قلوبنا، ولكل لعبة جمعتنا حولكِ، فكانت جنة مؤقتة على الأرض.
رحمكِ الله يا أماه، وجعل ما علمتِنا إياه نوراً نمشي به في الدنيا، وذخراً لنا عندك يوم القيامة.

فندق "مرحبا رويال سالم": ذكريات لا تموت
(روضة الآنسة ميساء، والمحادثة التي لا تُنسى)
من بين كل الفنادق التي ذهبنا إليها وقضينا فيها أوقاتاً ممتعة، يبقى فندق "مرحبا رويال سالم" أحد الفنادق التي لا يمكنني نسيانها.

كيف لا، وأنا وأنتِ وأختي قضينا فيه أياماً لا تنسى؟ كيف لا، وفيه تعلمت أنا وأختي في روضته عند الآنسة ميساء؟

نعم يا أماه... روضة الفندق كانت عالماً صغيراً ممتعاً. هناك تعلمنا الكثير من الألعاب مع الصغار، وقضينا أوقاتاً مسلية، وكنا ننتظر كل صباح بفارغ الصبر لنذهب إليها.

وأنتِ يا أماه، كنتِ تطمئنين علينا، ثم تذهبين لتتمتعي بوقتكِ، وأنتِ تعلمين أننا في أيدٍ أمينة. وعندما نعود إليكِ، كنا نحدثكِ عن ألعابنا وأصدقائنا الجدد، وكنتِ تبتسمين وتقولين: "سعادتكم، سعادتي".

في نفس الفندق: حيث دارت المحادثة مع الزوجة الفرنسية وزوجها
وفي نفس الفندق يا أماه، في إحدى زياراتنا له، دارت تلك المحادثة التي لا أنساها مع زوجة فرنسية وزوجها.

أتذكر أننا كنا نجلس في بهو الفندق الفسيح، والنور يتسرب من النوافذ الكبيرة كأنه يبارك اللحظة. كنتِ أنتِ والسيدة الفرنسية تتبادلان أطراف الحديث، والضحكات تعلو بين الحين والآخر، وكأن اللغات لا تفرق القلوب.

ثم التفتت إليَّ السيدة، ونظرت إليَّ بنظرة فيها فضول وإعجاب، وسألتني عن اسمي وعن عمري، وكأنها تكتشف طفلاً مختلفاً.

فأجبتها بطلاقة، وبثقة لا تأتي إلا من تعلم مبكر. تحدثت معها كأنني ولدت في باريس، لا في تونس. وكأن الفرنسية ليست لغة ثانية في بلدنا، بل لغتي التي رضعتها مع الحليب.

تعجبت السيدة، وتعجب زوجها أيضاً. سألاني: "أين تعلمت هذه اللغة؟ ومن علمك هذا الإتقان؟"

فنظرت إليكِ يا أماه، وقلت لهما بكل فخر: "من أمي... هي من علمتني أن اللغات مفاتيح الدنيا، وأن من يتقنها يملك قلوب الناس قبل عقولهم" .

نظرت إليكِ السيدة بإعجاب كبير، وقالت لكِ كلمات تشبه النجوم في سماء الفخر: "إنه ابن ذكي جداً... لقد أدهشنا".

وأنتِ يا أماه... لم تتفاجئي، لم تتصنعي التواضع. ابتسمتِ ابتسامتكِ الهادئة الواثقة، ونظرتِ إليَّ نظرة من تعرف تماماً ما في جعبة ابنها. نظرة كأنها تقول: "هذا ابني... أعرفه. أعرف من أنجبت. لا شيء يدهشني."

كأنكِ كنتِ تقولين في سركِ: "لقد زرعتُ فيه حب المعرفة، فها هو يقطف ثماره. لا عجب في نبوغ من تعب، ولا دهشة في نجاح من سهر".

فيا أماه، كلما تذكرت فندق "مرحبا رويال سالم"، تذكرت روضة الآنسة ميساء، وتذكرت ألعاب الطفولة، وتذكرت تلك المحادثة التي جعلت الجميع ينظرون إليكِ بإعجاب، وأنتِ تنظرين إليَّ بثقة لا تتزعزع.

فشكراً لكِ يا أماه على كل لحظة قضيناها هناك. شكراً لأنكِ جعلتِ من الفنادق ذكريات، ومن الذكريات جنة لا تفارق قلبي.

شكراً لأنكِ كنتِ واثقة بي حين لم أكن أنا واثقاً بنفسي بعد. شكراً لأنكِ لم تندهشي حين أبهرت الناس، لأنكِ كنتِ تعلمين أن هذا هو أنا... أنا الذي صنعتِه بيديكِ ودعواتكِ.
اللهم ارحم أماه، وأسكنها فسيح جنانك، كما أسعدتنا في الدنيا. واجمعني بها في الفردوس الأعلى، لأقول لها أمام الجميع: "هذا أنا يا أماه... ما زلتُ كما علمتني" .

صورة LES ÉLITES: آخر الصور التي التقطتيها لي
(البكالوريا، أستاذة الإسبانية، وعهد)
ولا زلتُ أحتفظ بتلك الصورة يا أماه... تلك الصورة التي تعد من آخر الصور التي التقطتيها لي.

أتذكر ذلك اليوم كأنه الآن. كنا في LES ÉLITES، وأنا على عتبة الاستعداد لامتحان البكالوريا. كنتُ أهم بدراسة اللغات في الصيف، لا لأكسبها فقط، بل لأكسب وقتها أيضاً. كنتُ أريد أن أجعل كل دقيقة من عمرها ثمينة، لأنها كانت معي.

وإذ بي أتذكر ذلك الحوار الذي دار بينكِ وبين أستاذة إسبانية. يا سبحان الله... أمي تتحدث مع أستاذة إسبانية عن مستقبلي! وكأنكِ كنتِ تبنين لي الطرق قبل أن أمشي عليها.

تلك الأستاذة نظرت إليكِ طويلاً، ثم قالت لكِ بإعجاب لم تخفيه:
"نعم الأم... نعم الأم أنتِ. وهذا الابن... نعم الابن".

وأنتِ يا أماه... لم تتفاخري، لم تتباهي. ابتسمتِ فقط، ونظرتِ إليَّ نظرة من تعرف أن كل كلمات الدنيا لا تكفي لوصف ما في قلبها.

ثم أمسكتِ بهاتفكِ، والتقطتي لي صورة وأنا في قاعة الاجتماعات الخاصة بالأساتذة، وقلتِ لي بصوت فيه ثقة وحب:
"يا بني... أحضر البكالوريا".

فأجبتكِ، وقلبي يخفق بالعزم:
"أبشرِ يا أماه... لا تقلقي".

وقد انتهت رحلة البكالوريا... لكنكِ رحلتي
والآن يا أماه... قد انتهت رحلة البكالوريا. أوفيتُ بعهدي، نجحتُ، وتفوقتُ، ورفعتُ رأسكِ عالياً.

لكني يا أماه... لم أوفِ حقكِ. لن أوفيه أبداً.

لقد انتهيتُ من البكالوريا بنجاح، ولكن في كل ليلة نجاح، وفي كل فرحة تفوق، كنتُ أتمنى شيئاً واحداً:

أن يَرحل البكالوريا وتبقين أنتِ. أن تذهب الكتب وتدوم ضحكتكِ. أن تفنى الأوراق وتظل يدكِ في يدي.

فما قيمة شهادة بدون من فرحت بها؟ وما طعم نجاح لا تشاركين فيه؟

كنتِ تقولين لي: "أحضر البكالوريا". فأحضرتها يا أماه. لكنني لو خيروني بين شهادة البكالوريا وبين بقائكِ معي يوماً واحداً، لاخترتُكِ أنتِ. ولو كان الثمن أن أرسب في كل المواد، لدفعته بكل فرح.

لن أوفيكِ حقكِ... مهما كتبت
وها أنا اليوم يا أماه... كلما أظن أنني انتهيت من كتابة هذه الرواية، أتذكر تفصيلة ولو صغيرة. ثم أخرى، ثم أخرى. وكأن مواقفكِ الجميلة الحسنة لا تنتهي، وكأن حب الناس لكِ لا يمكن حصره في صفحات.

ففي النهاية يا أماه... لن أوفيكِ حقكِ. حتى لو أملأت كل الأوراق، وكل صفحات الكتب. حتى لو كتبت بكل لغات العالم، وبكل الحبر الذي في الأرض. لن أوفي حقكِ.

لأن حق الأم ليس في الكلمات. حق الأم في القلب. وفي الدعاء. وفي أن نكون كما علمتنا. وفي أن نرفع رأسها في السماء كما رفعت رأسنا في الدنيا.

فشكراً لكِ يا أماه على كل صورة التقطتيها لي. على كل كلمة قلتيها فيّ. على كل ثقة وضعتيها في قلبي قبل أن تضعيها في يدي.

شكراً لأنكِ جعلتِ من البكالوريا قصة نجاح، ومن حياتي قصة حب لا تنتهي.

اللهم بلّغ أماه مني أنني أحبها. وأنني كلما نجحت، تمنيت لو كانت هنا. وأنني سأظل أدعو لها حتى يلقاني الله بها في الفردوس الأعلى.

رحمكِ الله يا أماه، وجمعني بكِ حيث لا بكالوريا ولا امتحانات ولا فراق.

أيام الصيف: بين الدراسة والرفاهية
(وأنتِ يا أماه من علمتني التوازن)
وأنتِ يا أماه... مهما صار، ومهما كان، كنتِ أنتِ من تعلميننا أن نوازن بين الرفاهية والعمل والدراسة.

فلن أنسى أبداً أيام إجازة الصيف تلك الجميلة. كنت أغادر الفندق صباحاً لأذهب للدراسة في Les Élites، وقلبي مليء بالعزم، وظهركِ أنتِ خلفي يدعو لي.

وعندما أعود، كنتِ تنتظريني بفارغ الصبر. أجلس قليلاً في غرفة الفندق، أحدثكِ عن يومي، عن دروسي، عن أستاذتي. وأنتِ تسمعين، تبتسمين، وتقولين لي:

"تعبت يا بني؟ خذ قسطاً من الراحة... ثم اذهب لتقضي بعض الوقت الممتع معنا" .

فأذهب يا أماه... أذهب لقضاء بعض الأوقات المسلية معكِ ومع العائلة، على المسبح أو على البحر. أسبح، ألعب، أضحك، وأنسى تعب الدراسة قليلاً. ولكنني لا أنسى أبداً أنكِ أنتِ من صنعت هذا التوازن.

وأنتِ دائماً تشجعيني، ولا تنسين أن تكرري عليَّ كلماتكِ التي سكنت قلبي:

"خذ قسطك من الراحة... تنجح في دراستك. لا ترهق نفسك كثيراً، فالقلب يحتاج إلى راحة كما يحتاج إلى عمل" .

درس لن أنساه
فشكراً لكِ يا أماه. شكراً لأنكِ علمتِني أن الحياة ليست إما دراسة قاسية أو رفاهية فارغة، بل مزيج جميل بينهما. شكراً لأنكِ جعلتِني أدرك أن النجاح لا يأتي من التعب فقط، بل من التوازن أيضاً.

رحمكِ الله يا أماه، وحفظ الله لنا من بقي من الأحبة، وجمعنا كلنا في جنات عدن التي وعد بها المتقين، يا رب العالمين.
فأنتِ يا أماه كنتِ خير معلم، وخير مشجع، وخير من ينتظر عودة ابنها ليحدثها عن أحلامه، ثم تدفعه ليكمل بلا خوف.

أيام الحج: صيف سنة 2018
(وداع، حنين، وموقف لا يُنسى)
لن أنسى يا أماه أيام الحج، صيف سنة 2018.
لن أنسى اللحظات التي ودعناك فيها، وعندما صعدتِ الطائرة أنتِ وأبي.

كان أبي يبكي... يبكي من أجل أخي الصغير أمير، خوفاً عليه، وحزناً على فراقه. ولكنكِ أنتِ يا أماه... كنتِ تضحكين وتطمئنينه:
"أتبكي عليه وأنت ذاهب للحج؟ ابتسم، فالله معنا، وهو معه" .

ولن أنسى يا أماه عندما كنتِ تتحدثين معي بالكاميرا، كلما أتيحت لكِ فرصة مناسبة. كنت أرى ملامحكِ وأنتِ حاجةٌ للبيت العتيق، وقلبي يخفق بالسعادة والخوف معاً.

لحظة العودة: مطار قفصة
ولن أنسى يا أماه ذلك الشعور يوم ميعاد إياب رحلتكِ.

ذهبتُ أنا والعائلة إلى مطار قفصة لاستقبالكِ. وتصادف أن وجدت يوسف، ابن طاطا بشرى، هناك. هم أيضاً كانوا على استعداد لاستقبال وفدهم من الحجاج.

فتمكنتُ أنا ويوسف من التسلل إلى داخل المطار. تفادينا الحراس، حتى وصلنا إلى مكان التفتيش. هناك، كان يفصلني عن احتضانكِ أنتِ وأبي... باب فقط.

كنا ننظر إلى بعضنا من خلف الجدار الشفاف. كنتِ تبتسمين، متشوقة للقائي واحتضاني. وأبي كان مبتسماً أيضاً، لكنه كان مستغرباً من بروتوكول التفتيش.

وكنا ننتظر... ننتظر انتهاء الإجراءات.

الموقف الذي لا يُنسى
وإذ بي أستغرب... كيف لحاج عائد من مكة المكرمة والمدينة المنورة أن يقف طابوراً كبيراً للتفتيش، وعائلاتهم تنتظر خارجاً بفارغ الصبر؟

فقلت بغرابة، ولم أخفِ دهشتي:
"أهذا حاج عائد من أقدس بقاع الأرض يتعرض للتفتيش؟ ما هذا البروتوكول الذي يتبعه رجال الأمن؟ أيظنون أن حاجاً عائداً من البيت الحرام يحمل معه مخدرات أو أشياء ممنوعة؟!"

سمع أبي ما قلتُ. فمباشرة، غادر الطابور، وحلف: "والله لن يمر أي من ممتلكاتنا على التفتيش" .

وقف معه حجاج مدينة عيش – حفظهم الله وطيب الله ذكراهم – والذين لن أنسى بالمناسبة كرم ضيافتهم لنا عندما استضافونا لزيارتهم في مدينتهم الباهية.

وقفوا رجالاً، أصحاب مبدأ وموقف، مع أبي. وما هي إلا لحظات حتى استسلم رجال الأمن للواقع، وللسيادة التي بدأها أبي بمساعدة رجال مدينة عيش. فرض الحجاج على البروتوكول أن تمر الأمتعة دون تفتيش، ربحاً للوقت.

فما حصل يا أماه... لا يعقل أصلاً. ولكن الإرادة تصنع المستحيل.

أولى لحظات اللقاء
ثم لن أنسى اللحظات الأولى وأنا أبحث معكم عن الحقائب. أسألكِ وأسأل أبي بكل تشوق:
"أأحضرتما كمية هائلة من ماء زمزم المبارك؟"

ولن أنسى اللحظات الأولى للخروج من المطار، والذهاب إلى السيارات، والعودة إلى الرديف.

كان هناك اصطفاف سيارات هائل، وحسن استقبال. بيتنا كان مفتوحاً 24 ساعة طيلة أيام الأسبوع. القرآن، والأناشيد الدينية، والذكر الذي لا يتوقف. اجتماع الأهل والأحبة فيه.

يا لها من أيام... يا لها من أيام مضت... كما رحلتِ أنتِ يا أماه إلى العلياء.

فاللهم تقبل حجها، واجعل سعيها مشكوراً، وذنبها مغفوراً. واجمعني بها في جنات عدن، حيث لا تفتيش ولا طوابير ولا فراق.

رحمكِ الله يا أماه، وجعل ما كتبته عنكِ نوراً يمشي بين يديكِ يوم القيامة.

ليلة في أرضنا الحبيبة
(شواء، حكايات، وضحكات لا تنسى)
لن أنسى يا أماه... لن أنسى ذلك اليوم وتلك الليلة.

تلك الليلة التي ذهبنا فيها كلنا إلى أرضنا الحبيبة، الكثيرة العطاء، الكثيرة الذكرى. أرض تمتد كما تمتد أحلامنا، وتتنفس كما تتنفس قلوبنا حين تجمعنا.

قضينا أمسية جميلة لا تنسى. لا يشبهها شيء، ولا يمكن أن تعوضها أيام.

طبخنا معاً، أنتِ وأبي وأختي وأنا وأمير. شوينا اللحم على النار، وأكلنا ما طاب ولذ. كانت رائحة الفحم تمتزج برائحة التراب، ورائحة الضحكات تمتزج برائحة الحنين.

وكنا فرحين... مسرورين... كأن الدنيا كلها لا تسعنا، وكأن الزمن توقف ليرى كيف تكون السعادة حين تجتمع عائلة تحت سماء واحدة.

تبادلنا أطراف الحكايات، والأحاديث الطويلة التي لا تنتهي. كنتِ تتذكرين أشياء من الماضي، ونحن نضحك، ونغني، ونتمنى لو أن هذه الليلة لا تنتهي أبداً.

كنتِ تنظرين إلينا ونحن نأكل، وتبتسمين ابتسامة الراضية المطمئنة. كنتِ تقولين في عينيكِ: "هذه هي الحياة... هذا هو كل ما أردته" .

ذاكرة لا تموت
واليوم يا أماه... بعد أن رحلتِ، أعود بتلك الذاكرة إلى الليلة. أشم رائحة الفحم في خيالي، وأسمع ضحكاتنا في أذني، وأراكِ في القلب.

فيا رب... اجعل تلك الأرض شاهدة لأمي، لا عليها. اجعلها تشهد بأنها كانت أماً جمعتنا، وأرضاً زرعت فينا الحب، وليلة لا تنسى ستبقى في قلبي حتى ألقاها في جنتك.

يا رب... بارك في أرضنا، وفي أهلنا، وفي كل ليلة قضيناها معاً. واجمعني بها في جنة لا تغيب شمسها، ولا تنتهي لياليها.

رحمكِ الله يا أماه، وجعل كل شبر من أرضنا يشهد لكِ يوم القيامة بالخير والبركة.

– أول حاسوب جيمر (حين قالت أمي : " هذا حاسوبك من اليوم ")
أتذكر يا أماه... أول حاسوب جيمر اشتريته في حياتي.

كانت أياماً كنت أظن فيها أنني لن أستطيع شراء حاسوب جديد أبداً. الأسعار مرتفعة، والظروف صعبة، وقلبي كان مقسماً بين رغبتي في الحاسوب وخوفي من أن أكون ثقيلاً على العائلة.

ثم رأيت صديقي العزيز أحمد دهان يعرض حاسوبه للبيع. كان قلبي يدق بسرعة. هممتُ بأن أُري العرض لكِ يا أماه، وظننت أننا فقط سنأخذ ونعطي في الفكرة، يعني مجرد حديث عابر، ولن أشتريه الآن.

لكنكِ يا أماه... لم تترددي. لا للحظة، ولا لثانية.

نظرتِ إلى العرض، ثم نظرتِ إليَّ، وقلتِ لي بكل ثقة، وكأنكِ كنتِ تنتظرين هذه اللحظة:

"حاسوبك من اليوم يا بني... الحاسوب ملكك".

لا "سنتكلم لاحقاً"، ولا "ربما لاحقاً". فقط "حاسوبك من اليوم".

أنا يا أماه... من راسلت صديقي أحمد. أخبرته أن الحاسوب أصبح ملكي، بفضل الله ثم بفضلكِ. وكان رد أحمد سريعاً، فرحاً، وكأنه يعرف أن هذه اللحظة ستكون من أجمل لحظات حياتي.

وصار الحاسوب ملكي يا أماه... وأنا لا أصدق. كنت أظنني أحلم، وأنا أنظر إلى الشاشة التي أصبحت بين يدي، وأتذكر أن أمي هي من جعلت هذا الحلم حقيقة، دون أن تطلب مني شيئاً، ودون أن تنتظر مني رداً.

فشكراً لكِ يا أماه. فكل لعبة لعبتها على هذا الحاسوب، كان فيها دعاء لكِ. وكل إنجاز حققته من خلاله، كان فيه فخر بكِ. وكل مرة أجلس أمامه، أتذكر أنكِ كنتِ أول من آمن بحلمي، حتى قبل أن أؤمن به أنا.

خنجر Glitchpop: حين كانت أماه تعرف عالمي حتى في الألعاب
(حلم في رمضان، وثقة بنيت بكلمة طيبة)
ولم تكن أماه تهتم فقط بملابسي وأشيائي الخارجية. لا... بل كانت حريصة على رؤيتي كاملاً متكاملاً، حتى في عالم الألعاب.

ذات يوم من أيام شهر رمضان المبارك، كنت أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي في المتجر الخاص بي في لعبة فالورانت السلاح الذي طالما حلمت به: خنجر Glitchpop.

وكل يوم، أفتح المتجر، أبحث، أنتظر. ثم يأتي يوم عطلة، وأراه أخيراً... لكن متأخراً. كانت البنوك قد أغلقت، والبريد لا يعمل، والعرض لن يبقى متاحاً إلا لأقل من 24 ساعة.

ذهبتُ إليكِ يا أماه، وسألتكِ إن كنتِ تملكين المال. لا لشيء، إلا لأبحث عن متجر قد يثق فيّ ويشتريه لي قبل أن ينتهي العرض.

فدون تردد... أعطيتني.

متجر Lawa Store: حين تذكرني صاحبه بتعليق قديم

بحثتُ عن متجر يثق فيّ، ووجدت متجر Lawa Store. تحدثت مع صاحبه، أو بالأحرى مع أحد القائمين عليه، وشرحت له الموقف. كنت خائفاً ألا يثق بي، فالموقف صعب: أن يدفع ثمن سلاح لشخص لا يعرفه، وينتظر أياماً حتى يسترد ماله.

لكن صاحب المتجر... لم يتردد. بل أخبرني في رسالة لن أنساها أبداً:

"الأمور طيبة... وأنا أتذكرك. كنتَ من أوائل من كتب لي تعليقاً جميلاً في الأيام الأولى لإنشاء صفحتي ومتجري. كلامك الطيب لم أنساه" .

نعم يا أماه... تعليق كتبته منذ زمن بعيد، في أيامه الأولى، كان سبباً في ثقته بي اليوم. كلمات بسيطة، لكنها تركت أثراً في قلبه، فعادت إليَّ حين احتجتها.

وهكذا يا أماه... علمتِني أن الأخلاق الطيبة ليست ترفاً، بل استثمار. وأن الكلمة الطيبة صدقة، ترجع إليك حين لا تتوقع.

فوالله يا أماه، لو لم أكتب ذلك التعليق منذ سنوات، ربما لما عرفني، ولما ائتمنني. وربما لضاع مني الخنجر الذي طالما حلمت به.

ثم عاد إليَّ من تلقاء نفسه... يبشرني. لقد وافق. وسألني: "هل تريد أن أشتريه لك الآن؟"

نعم. وفي يوم 2 مايو، أصبح الخنجر ملكي.

فيا أماه... لم تكوني فقط تلبسينني وتطعيمني. كنتِ تدخلين عالمي كله، حتى عالم الألعاب. كنتِ تعرفين ما أحب، وتعلمين ما أتمنى، وتجعلين المستحيل ممكن.
فاليوم، كلما استخدمت ذلك الخنجر في اللعبة، أتذكر أن أمي هي من جعلته في يدي. وأن لا سلاح أقوى من دعاء الأم، ولا خنجر أمض من حبها.

وأتذكر أيضاً أن كلمة طيبة كتبتها منذ سنوات، عادت إليَّ خبزاً في يوم حاجتي. فسبحان من لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

فشكراً لكِ يا أماه على تعليمي أن الطيبين يجدون الطيبين. وأن الثقة تُبنى بكلمة، وتُهدم بكلمة. وأن الإنسان يحصد ما زرع، حتى لو كانت زراعته مجرد تعليق على صفحة متجر.
اللهم ارحم أماه، واجمعني بها في الفردوس الأعلى. وبارك لأصحاب متجر Lawa Store في رزقهم، واجعل ما فعلوه معي في ميزان حسناتهم.
رحمكِ الله يا أماه، وجعلني ممن يزرعون الطيب في كل مكان، كما علمتني.

"برنامج " فكرة الشهيد صالح الجعفراوي
سبحان الذي يسخر الخير لعباده، ويسخرهم للخير
سبحانه من لا يعجزه شيء في الأرض والسماء
سبحان مسبب الأسباب

أثناء عزمي وتوكلي على الله، مستعيناً بالآية الكريمة {وإذا عزمت فتوكل على الله}، لتصوير برنامج "فكرة الشهيد صالح الجعفراوي"، وهو أن نسأل الناس: متى آخر مرة قرأتُم القرآن؟ وسمعونا آية لو حافظين

كان لدي امتحان يومها، وكنت متخوفاً ليس من التصوير، وإنما من تلقي صدمة بعض الإجابات. ولكن يومها كنتُ أحس بشعور الرضا، إذ كانت بشائر ذلك اليوم تتهلّل عليَّ بدايةً من فجره، وهو أحب الأوقات للمولى عز وجل، "وقال نبينا ﷺ: "بُورك لأمتي في بكورها

بعد أن خرجت من البيت متجهاً نحو الكلية، كنتُ أصطحب معي العديد من الأغراض التي سأستعين بها لاحقاً في البرنامج، وكنت خائفاً بعض الشيء، فهناك أزمة كبيرة في نقل المواصلات العامة

عموماً، سبحان الله، وإذ بي لا أبتعد تلك المسافة البعيدة عن بيتي، فتعرض لي سيارة، سائقها رجل طيب سخره الله لي. ركبت معه، وغيّر وجهته، وأوصلني أمام الكلية. فوصلت باكراً دون فوضى المواصلات والخوف من الوصول متأخراً إلى قاعة الامتحان

وكان معي 7 هدايا. ولو تلاحظون، لمن شاهد الفيديو، سألنا وقدّمنا أشخاصاً لستة فقط

فبينما أنا مع ذلك الرجل الطيب في سيارته، قلت لنفسي: هذا اصطفاء وتسخير من رب العباد، فلنعطه هدية من السبع التي عندي، ونقوم بسؤال ستة فقط، فهذا يكفي
وهنا كانت البركة

.

"فرح يومها ذلك الرجل، بل ورفض في البداية تلقي الهدية قائلاً: "ربما أنت على استعداد لإعطاء سبع في برنامجك
"فأخبرته: "لا، أنا أصلاً متخوف من ردود بعض الناس، فخذ أنت واحدة وليبقَ ست

بعد الامتحان: رحلة التصوير عند المسجد الكبير
وبعد أن انتهيتُ من الامتحان، ذهبتُ أنا وفريق العمل حذوَ المسجد الكبير، وهممنا بالتصوير

:وهنا أدركتُ شيئاً عظيماً
سبحان الذي سخرني للخير، وسخر لي الخير، وسخر لي أطيب الأشخاص

تلك الهدية الصادقة التي قدمتها لذلك الرجل الطيب الذي أوصلني إلى الجامعة، كانت في الحقيقة باباً لخير كبير لم أتوقعه

لقد صورنا مع 6 أشخاص فقط، وكانت الهداية – والحمد لله – كافية لهم. ولم أعد أحتار أو أندم لأنني لم أصور مع 7

فالأشخاص الطيبون في ذلك اليوم، والذين صوّرت معهم، كانوا بالضبط 6، بعدد الهدايا التي بقيت لي

الحكمة التي اكتشفتها يا أماه
نعم يا أماه، كنتُ أظن أن النقصان خسارة، فإذا هو تمام البركة
كنتُ أعتقد أن 7 أكمل من 6، فإذا بالله يعلم أن 6 تكفي، وأن الهدية التي خرجت من يدي إلى ذلك الرجل الطيب، عادت إلينا أضعافاً مضاعفة في شكل قلوب نقية قبلت التصوير بكل حب.

فما من شيء يخرج لله إلا ويعود علينا بالخير من حيث لا نحتسب

وهكذا يا أماه، كنتِ تعلّمينني دائماً: "يا بني، لا تخف أن تعطي، فالله لا يضيع أجر من أحسن عملاً. فالهدية الصادقة كالنبتة الطيبة، تطرح خيرها أضعافاً مضاعفة، ولو لم ترَ ثمرها بعينك، فستجده في موضع آخر يضيء طريقك"

والحمد لله، كان البرنامج أجمل وأعمق بكثير مما توقعت. ولم تكن الستة أشخاص مجرد عدد، بل كانوا ستة مواقف، وستة قلوب، وستة دروس في العطاء والإنسانية

أقف غريباً تائهاً
أقف في الطريق، يستوقفني المارة:

"كيف حال الأم؟ بلّغ سلامي لها".

فأجيب بنبرة حزينة، لكنها حازمة: "إنها بخير، الحمد لله. سأبلغه إن شاء الله".

ثم أقول في قلبي، حيث لا يسمعني أحد: "في الجنة يا رباه... في الجنة".

فلا أحد يعلم أن أماه في السماء إلا أنا والله.
والباقي يحيون ذكرى لم يعلموا أنها صارت دعاءً لا لقاء. يطلبون مني أن أُبلّغها السلام، ولو يعلمون أن رسائلهم تصل إليها عبر الدعاء لا عبر البريد.

وهكذا أفعل مع كل من يسأل، وكل من يوصي، وكل من يمر في طريقي لمرة واحدة.

لكن... هناك استثناء
أما أولئك الذين أخوض معهم محادثات عدة، ويصبحون أصدقاء لي، من عرب أو أعجام (مسلمين أو غير مسلمين، عرباً أو عجماً)، فعندما أسألهم عن أحوالهم، ويسألونني عن أماه، لا أقدر أن أخفي الحقيقة عنهم.

فأخبرهم، وأرى في أعينهم التأثر الذي لا يُوصف.

والعجيب يا أماه... أن الأجنبي الذي عرفني ليوم واحد فقط، وتحدثنا قليلاً، ثم سألني عنك، تأثر لسماع خبرك كأنه يعرفني منذ زمن بعيد. كأنه عاشر أمي كثيراً، ولم يرَ منها إلا الخير.

ياله من إحساس غريب... أن يجعل الله من فقدانك سبباً لاهتداء الناس، أو على الأقل سبباً لأن يتذكروا أمهاتهم، أو أن يبتسموا لذكرى طيبة.

فيا أماه، لا أدري كيف جعلك الله محبوبة حتى في قلوب من لم يروك. ولكنني أعلم الآن: أن الطيبين لهم رائحة تعبر الحدود، وأن الأرواح الطاهرة تجذب الخير إليها حتى بعد رحيلها.

فكلما سألني أحد عنك، ولو لمرة واحدة، رأيت في عينيه شيئاً لا يُشترى. رأيت احتراماً لامرأة ربت ابناً يحبها إلى هذا الحد، ولو كان ذلك الأجنبي لا يعرفكِ.

جعلك الله سبباً لمن اهتدى يا أماه، وجعل ذكراكِ هدى ورحمة للعالمين.

يسألوني عنكِ: حين تشهد الغرباء لكِ
(أثر لا يموت)
أتذكر يا أماه... بينما تم استدعاؤنا في مرة من الأيام إلى بيت خريجة جديدة من العائلة، إذ التفت إليَّ أحد الحاضرين وسألني:

"خليل... أين أمك؟ لماذا لم تأتِ معك؟"

نظرت إليه، وقلبي ينبض بالألم والشوق، ثم أجبتُ بكل ثقة ويقين:
"أمي؟... أمي في الجنة إن شاء الله" .

سكت للحظة، ثم نظر إليَّ بعينين تغير فيهما الضوء. تأثر. تأثر كثيراً. ثم رفع يديه ودعا لها بخير، وقال:
"الله يرحمها... الله يسكنها فسيح جناته" .

فيا أماه... حتى الغرباء يدعون لكِ. حتى من لم يعرفكِ إلا في تلك اللحظة، شعر بحجم الفراغ الذي تركتهِ خلفكِ.

من عرفكِ ازداد وجعاً... ومن لم يعرفكِ تمنى لو عرف
فمن يعرفكِ يا أماه... يحس أكثر بقيمتكِ بعد أن فقدكِ. يشعر أن الدنيا صارت أقل، وأن الضحكات صارت أخف، وأن الأيام تمر بلا طعم.

ومن لم يعرفكِ... تمنى لو أنه عرفكِ. تمنى لو أنه جلس معكِ لحظة، أو سمع منكِ كلمة، أو رأى ابتسامتكِ التي كانت تغسل الهموم.

فالأنسانية يا أماه... فقدت أطيب الناس. فقدت من كان قلبها يسع الجميع، ومن كانت يدها ممدودة بالعطاء قبل السؤال، ومن كانت ابتسامتها تهدي القلوب قبل الهدايا.

رحمكِ الله يا أماه. فكلما سألني أحد عنكِ، أخبرته أنكِ في الجنة. وكلما رأيتُ دمعة في عينيه، عرفت أن أثركِ الطيب لا يموت، وأن ذكراكِ ستظل نوراً يضيء قلوب من عرفوكِ، وحنيناً يملأ قلوب من تمنوا لو عرفوكِ.

فيا رب، اجعل قبرها روضة من رياض الجنة، واجعل ذكراها شفيعاً لنا يوم القيامة.

وكلما قيل لي: "أين أمك؟"
سأقول: "في مكان لا يموت فيه الأطيبون... في قلب الله أولاً، ثم في قلبي ثانياً" .

وإذا سألني سائل غداً: "أين أمك؟"
سأقول: "في مكان لا يموت فيه من يُحب... في قلبي و في الجنة" .

اللهم اجمعني بها في الفردوس الأعلى، ولا تجعل بيني وبينها حرماً بعد اليوم.

نعم المرأة
نعم المرأة كنتِ أنتِ يا أماه.
نعم التاجرة في زمن كثر فيه الربا، نعم المعلمة في زمن غابت فيه الأمانة.

كنتِ بالآلاف تعطين وتسامحين، والناس يتخاصمون على المليم. يقولون: كيف سنربح؟ والله يقول: {وفي السماء رزقكم}.

وكنتِ يا أماه كالنخلة العالية: لا يصل إليها الحاسدون، ولا تؤذي من لجأ إلى ظلها. من أراد ثمرها نال، ومن رماها بحجر، سقط الحجر في يده وهي باقية شامخة.

نعم المعلمة والأستاذة أنتِ يا أماه
أتذكر ذلك الموقف يا أماه، ولن أنساه ما حييت...

كنت على شفا خطوة من استلام جائزتي يوماً في المعهد. فرحتُ وتهيأتُ، وقلبي يخفق بالفرح. لكن إمرأةً حاسدةً حاقدةً، من أولئك الذين لا يطيقون الخير لأبناء غيرهم، طردتني من حصتها دون سبب مبرر. لا لشيء، إلا لأنها رأت النور في عيني فكرهته.

خرجتُ حزيناً، مكسور الخاطر، لا أعرف كيف أواجه أماه. لكنكِ يا أماه، لم تتركيني وحدي.

أتيتِ إلى المعهد، لا تحملين شكوى، ولا تطلبين حقاً، بل تحملين قلب أم يخاف على ابنها من أن يظلم. دخلتِ غرفة المدير، وحدكِ، بكل كبرياء وعزة نفس.

وأثناء وجودكِ هناك، قال لكِ القيم : "تفضلي... هذه جائزة ابنك. خذيها".

فنظرتِ إليه نظرة من لا يحتاج شيئاً، ولم تنظري إلى الجائزة حتى. وقلتِ بكل كبرياء وثقة، وبصوت لم يخلُ من حكمة الأم الواعية:

"ابني ليس في حاجة لهذه الأشياء. اذهبوا وابحثوا عن من يستحقها، وقدّموها له. فابني لا يريد جائزة من مكان يُظلم فيه".

ثم خرجتِ دون أن تلتفتي إلى الوراء. وخرجتُ معكِ، وأنا أشعر أنني ملكت الدنيا كلها، ليس لأنني حصلت على جائزة، بل لأنني رأيت أمي تنتصر لكرامتي قبل أن تنتصر لأي شيء آخر.

تلك الأستاذة... وحوارها مع أبي
ولكن يا أماه... هل تعلمين ما هو الأغرب؟

تلك الأستاذة نفسها التي طردتني، والتي ظلمتني بلا سبب، تحدثت مع أبي بعد الحادثة. ليس لتعتذر، ولا لترضيه، بل لتسأله بحيرة واستنكار:

"ابنك... كتب موضوعاً في الإنتاج الكتابي أكبر من عمره. كيف يمكنه كتابة هذا بهذا العمر؟ كيف لصبي في مثل سنه أن يكتب بهذه النضج؟"

نعم يا أماه... كانت متعجبة. وكأن الإبداع جريمة، وكأن النبوغ يحتاج إلى إذن مسبق. كانت ترى أن الكتابة الجيدة لا تأتي إلا من كبار السن، وأن على الصغار أن يبقوا صغاراً في كل شيء، حتى في عقولهم.

وأبي يا أماه... رد عليها بكل هدوء وثقة، وقال لها ما معناه: "ابني يكتب ما يفكر فيه. وهذا ليس عيباً، بل موهبة. فإذا كان كلامه أكبر من عمره، فلأن عقله أكبر من عمره أيضاً".

وما رأيها اليوم يا ترى؟
والآن يا أماه... ها أنا ذا أكتب كتاباً كاملاً. رواية بأكملها. ليست صفحات إنتاج كتابي، بل كتاب يُقرأ، ويُبكى عليه، ويُدعى لكِ من خلاله.

أتساءل يا أماه... ما رأيها اليوم؟ ألا تزال في نظرها أكتب كتابات أكبر من عمري؟ أم أنها الآن أدركت أن الموهبة لا تعرف عمراً، وأن الإبداع ليس حكراً على الكبار؟

أم أنها لا تزال كما هي... تحسد الصغير قبل الكبير، وتظلم النابغة قبل أن يزهر؟

لا يهم يا أماه. لا يهم رأيها اليوم، ولا يهم رأيها غداً. المهم أنكِ كنتِ تؤمنين بي، وأن الله كان معي. المهم أنني لم أتوقف عن الكتابة بسبب ظلمها، بل زادني إصراراً على أن أثبت لها أن العمر مجرد رقم، وأن القلم لا يعرف صغيراً ولا كبيراً.

فها هي روايتي يا أماه... "ظل الشهيد". أكتبها لأجلكِ، ولأجل كل من ظن أن الإبداع له سن معين. أكتبها لأقول للدنيا كلها: الظلم لا يقتل الموهبة، بل يصقلها. والحقد لا يطفئ النور، بل يزيده تألقاً.

فشكراً لكِ يا أماه على ثقتكِ التي كانت ولا تزال سندي. وشكراً لتلك الأستاذة... لأنها علمتني أن النجاح خير انتقام، وأن الصمت أحياناً يكون أبلغ رد.

اللهم اغفر لأماه، وارحمها، واجمعني بها في الفردوس الأعلى. واهدِ تلك الأستاذة إن كانت حية، أو اغفر لها إن كانت ميتة. فما كان منها، ربما كان سبباً في صنع كاتب لم تكن تتوقعه.

وكلما رأيتُ كتاباتي اليوم، أتذكر كلماتها المتعجبة، وأبتسم. وأقول في نفسي: "لو تعلمين يا سيدتي... لو تعلمين ما أكتب اليوم، لكنتِ أول من يصفق، أو أول من يحسد. وعلى كل حال، لا يهم".
فالحمد لله على كل حال، والحمد لله على نعمة أماه، ونعمة القلم، ونعمة الصبر على الظالمين.

يا ليت كل المعلمين مثلكِ يا أماه
فيا ليت كل المعلمين والأساتذة مثلكِ يا أماه...
ليتهم يربون قبل أن يعلِّموا، ويحبون قبل أن يحاسبوا، ويرفعون الطالب قبل أن يختبروه.

ويا ليت كل الأمهات حريصات على أبنائهن مثلكِ يا أماه...
ليتهم يغارون على كرامة أبنائهم كما غرتِ، ويدافعون عنهم كما دافعتِ، ويعلمونهم أن القيمة ليست في جائزة تأتيهم من ظالم، بل في كرامة لا يبيعونها لأحد.

لو كانوا كذلك، لكان الشارع اليوم نظيفاً. نظيفاً من الحقد، نظيفاً من الحسد، نظيفاً من المعلمين الذين يقتلون أحلام الطلاب قبل أن تولد.

لكن يا أماه... ليس الجميع مثلكِ. أنتِ كنتِ الاستثناء الجميل في زمن قبيح. كنتِ النافذة التي تطل على الجنة في زمن أغلق فيه الناس نوافذهم خوفاً من الريح.

فارفعي رأسكِ في قبركِ يا أماه، فأنتِ من النادرين الذين يتركون أثراً لا تمحوه السنين.

لو كانت كل الأمهات مثلكِ، لكانت الدنيا بخير.
هي كانت النور... ونحن ظلها
(محبة الأطفال، وجزاء الصابرين)
كانت رحمها الله محبوبة الأطفال.



يقولون: إن أردت أن تعلم مدى حب الله لعبده، فانظر إلى محبة الأطفال له.
وكان الأطفال يركضون إليها، ويلتفون حولها كأنها أم لهم جميعاً. كانت توزع الابتسامات كما توزع الهدايا، وكان قلبها يسع الدنيا بكل ما فيها من صغار وكبار.

ستظل روحي روحها ما حييت.
سأظل أرى بعينها لا بعيني. هوائي ذكراها، وأثرها ظلي.
كان وجهها البشوش نوراً لحياتنا. رحلت وتركت لنا نوراً من خلفها، أضاءه لها نور السماوات والأرض.

سر الصبر وجزاء المحسنين
إن الله جعل جزاء الصبر مخفياً لسببٍ عظيم. فالدنيا دنيئة، طعمها الابتلاءات، ومذاق الصابرين فيها فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون في جنات النعيم.
وما ابتلاؤنا من ابتلاء آل ياسر، إذ بُشّروا: "صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة".

فيا لروعة الأثر الطيب الجميل، يوم يجمعك الرحمن بالعدنان في جنات عدن، تجري من تحتها الأنهار.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟



ها قد رحلتِ يا أماه... لكن أثركِ الحسن باقٍ. وجميلكِ الذي زرعتِه في القلوب لا يموت. وعلمكِ النافع الذي تركتهِ وراءكِ، شاهدا لكِ، ونوراً يمشي بين يديكِ.

فكل طفل ضحك في وجهكِ، وكل محتاج أمسكتِ بيده، وكل زبون جبرتِ خاطره، وكل كلمة طيبة علمتني إياها...
كل هذا باقٍ. باقٍ في ميزان حسناتكِ، وباقٍ في ذاكرة من عرفوكِ، وباقٍ في روحي التي لن تنساكِ.
فاللهم تقبل من شهيدتنا مفيدة قليلها وكثيرها، وعلانيها وسرها. اللهم املأ ميزان حسناتها من نور لا ينطفئ، ومن أجر لا ينقطع، ومن رضا لا يغضب بعده أبداً. اللهم اجعل ما كتبناه عنها شاهداً لها لا شاهداً علينا. واجعل هذه الرواية نوراً يضيء قبرها، وشفيعاً لها يوم
القيامة. اللهم تقبلها في الصالحين الشهداء، واجمعني بها في الفردوس الأعلى، حيث لا فراق ولا حزن ولا بكاء.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

من سأستشير الآن؟
واااااااااااااااااا أماه!
من سأستشير الآن في قراراتي ومشاريعي؟ وأنتِ التي كنتِ تستشيرينني في أعمالك؟

اقترحتِ عليَّ اسم المكتبة، وقلتُ لكِ: سمّيها "مكتبة الأمير". ففرح أخي الصغير بحمل اسمه في المشروع.

واليوم يا أماه، كلما دخلت مكتبة، أراكِ خلف الطاولة تبتسمين. أتحدث معكِ وأنا أعلم أنكِ لا تردين، لكني أعلم أنكِ تسمعين. فالصوت الذي علمني الحروف، لا يموت بموت الجسد.

يا أجمل مواليد مايو
(إلى أماه في يوم ميلادها)
يا أجمل مواليد مايو... تمتعي اليوم في يوم ميلادكِ.

والذي سبحان الله يصادف خير أيام الدنيا: العشر الأوائل من ذي الحجة المبارك.

تمتعي بهذه الهدية الجميلة... هذا الكتاب الذي أتمنى أن يقبل الله مني، وأن يصل إليكِ وأنتِ مستبشرة، فرحة، مسرورة، في برزخكِ بإذنه جل وعلا.

صحيح يا أماه... خطفكِ أفريل. ومضى أفريل تلك السنة كالدهر. وللأسف، لم يكن أفريل هذه المرة كذبة... بل كان حقيقة مؤلمة.

لكنكِ تعلمين يا أماه... شهر مايو... شهر نحبه ويحبنا. إننا وفي أيام هذا الشهر، نسأل من جعل الأشهر اثني عشر، منها أربعة حرم، أن يعطينا وإياكم خير ما في هذا الشهر المبارك وخير ما بعده، وأن يصرف عنا وعنكم شره وشر ما بعده.

وبعد أن نحمد المولى أن أذن لنا بشهر جديد لنذكره ونستغفره ونعبده ونتوب إليه... وبعد أن نصلي على نبينا المجاهد الشهيد، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين... وبعد...

نامي في نور القبر وضيائه يا أماه، فأنتِ اليوم عند من لا يضيع عنده أجر من أحسن عملاً.
رفيق الأنبياء والصديقين والشهداء، لا خوف عليكِ ولا حزن.

فأنتِ وأمثالكِ خُلقتُم لجنة عرضها السماوات والأرض، لا لدنيا دنيئة.

نامي قريرة العين، مطمئنة الروح، فما تركتهِ خلفكِ ليس ضائعاً. فأنتِ زرعتِ فينا الحب، وسقيتِنا الإخلاص، وحصدنا من بعدكِ الدعاء والوفاء. وكل دمعة تسقط على قبركِ، تنبت وردة في حديقتكِ في الفردوس الأعلى.

لا تخافي، فلن ننساكِ، ولن نخون وصيتكِ، وسنكون كما أردتِ: أقوياء بالله، رحماء بالناس، أوفياء للذكرى.

كوني في القرار الآمن، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.
لا تعذّبي ولا تحزني، فالجنة مأواكِ، والرضوان جزاؤكِ، ونحن على وعدكِ لا نخلفه.
وما الدنيا إلا جسر عبرتِه إلى الخير المقيم، فطوبى لكِ وما أعد الله لكِ.

دعاء الختام
أسأل الله الذي وفقني لكتابة هذه الرواية الجميلة إن شاء الله، أن يجعلها في ميزان حسنات موتى المسلمين جميعاً.

وصلّى الله وبارك على الحبيب الذي ترجى شفاعته... محمد ابن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

رحمكِ الله يا أماه، وجعل يوم ميلادكِ هذا عيداً في السماء كما كان عيداً على الأرض.

وكل عام وأنتِ في الفردوس الأعلى.

وكل عام وأنا أنتظر لقاكِ.

الفصل الثاني: فلسطين



(ميدان الشهداء والأنبياء)

الافتتاحية: بسم الله المعين

بسم الله المعين وبه نستعين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

نبدأ بسم الله الرحمن الرحيم في كتابة مقدمة فصل "فلسطين" من رواية "ظل الشهيد" ، في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك. وخير ما نستفتح به كلام رب العالمين، الآية الكريمة من سورة آل عمران:

{إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} (140)

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) [الحج: 39]

فكيف لربي أن أكتب رواية عنوانها "ظل الشهيد" ولا يكون لتلك البقعة المباركة، التي لم يسبق لها أن ترى سلاماً، نصيب؟

فلسطين التي باركها الله... لا يمكن أن تبارك ظلماً.
والأرض التي اختارها الله... لا يمكن أن تختار غصاباً.
والقبلة الأولى... لا يمكن أن تبقى أسيرة للأخيرة.

هذه أرض الشهداء والرباط، وإخوة بيت المقدس وأكنافه، وعلى حدود عسقلان، الذين صدق فيهم وعد الله وكلام رسولنا المصطفى الأمين محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

كيف لي أن أنهي كتابة هذه الرواية دون أن أوفي حق إخواني وأخواتي عليّ وعلينا؟ بل لن نوفيهم أبداً.
نسأل الله أن يسامحنا ويغفر لنا خذلاننا.

الحمد لله رب العالمين، هازم الأحزاب، مجري السحاب، منزل الكتاب.
الحمد لله معز المؤمنين الصادقين بنصره، مذل الطغاة المشركين بقهره.
نحمده على إعزازه لأوليائه وأنصاره والمستضعفين من عباده على أرضه الواسعة.
والصلاة والسلام على نبي الله، قائد قافلة النور والشهداء، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين أجمعين.

إلى صديقي الفلسطيني "أبو عادل" (سلندر)
وقبل أن أمضي في سرد خيالي وأحلامي، لا بد أن أوفي حق من أوفى.
هنا، على صفحات روايتي هذه، أرسل تحية عطرةً من القلب إلى القلب، إلى صديقي الفلسطيني الصابر، أبي عادل، الذي يُعرف بـ "سلندر".

نعم يا أماه... إلى فلسطين أرسل التحية، وإلى رجل فلسطيني صادق أهدي الدعاء.

أتذكر أيام مايو من سنة 2019، تلك الأيام المباركة التي صادفت خير أيام الدنيا: أيام شهر رمضان المبارك. أرسل إليَّ صديقي أبو عادل هدية لم تكن مادية، بل كانت هدية الروح قبل الجسد.

ماذا كانت الهدية؟

كتب اسمي... نعم، كتب اسمي الذي سميت به من قبل والدي، بالكمال والجمال: "محمد خليل" . كتبه بخط يده، في أقدس بقاع الأرض، في باحات المسجد الأقصى المبارك، حيث تعرج الملائكة وتتنزل الرحمات.

تخيل يا أماه... اسم "محمد خليل" كان حاضراً في الأقصى، يرفعه الدعاء، وتظلله قباب القدس، وتشهد عليه صخرة المعراج.

فرحة أماه
وما كانت فرحتي وحدها يا أماه... بل كانت فرحتكِ أنتِ أيضاً.

رأيتِ الهدية، وقرأتِ الاسم، وعلمتِ أنه كُتب في الأقصى. فلم تملكي نفسكِ من الفرح. شاركتِ الصورة على بروفايل فيسبوك الخاص بكِ، وكتبتِ كلمات فرح لا تنسى.

كنتِ تقولين في سركِ: "ابني محمد خليل... اسمه في الأقصى. من يصدق؟"

وكنتِ تظهرين للجميع أن هذه الهدية هي أثمن ما ملكتِ في ذلك اليوم.

فشكراً لكِ يا أماه على فرحتكِ. وشكراً لكَ يا صديقي أبا عادل على هذه اللفتة التي لا تنسى. حفظك الله وحرر بك القدس، وجعل اسمك في عليين كما جعلت اسمي في الأقصى.

فاللهم بارك لأبي عادل في عمره، واجعل القدس قريبةً من قلبه كما هي قريبة من عينيه، واجمعنا بها أحراراً بإذنك يا رب العالمين.

الإطار الذي جمع الأقصى والبكالوريا
ولن أنسى يا أماه... في أيام البكالوريا، حين قررت تزيين غرفتي لأجد راحتي أكثر عندما أهم بالدراسة.

كانت الغرفة بحاجة إلى لمسة تحفزني، إلى شيء يذكرني بأنني لست وحدي، وأن هناك من يحبني ويدعو لي من بعيد. فقررت أن أخرج الصورة التي أرسلها لي صديقي أبو عادل من الأقصى، وأضعها في إطار جميل.

صورة فيها اسمي "محمد خليل" مكتوباً في باحات المسجد الأقصى... يا لها من بركة!

أخذت الإطار وعُدت به إلى المنزل. ذهبتُ إلى أمي في المطبخ، وأريتها إياه. كنتُ خائفاً ألا تفهم، أو أن تمر مرور الكرام. لكنها نظرت إليه طويلاً، ثم انفرجت أسارير وجهها، وتبسمت ابتسامة عريضة.

قالت لي أماه، وكأنها تبارك دراستي وتفوقي:
"العاقبة... إن شاء الله العاقبة لشهادة البكالوريا" .

نعم يا أماه... كانت تلك الدعوة. دعوة من القلب، في المطبخ، بين القدور والأواني، وفي يدها ملعقة الطعام. دعوة بسيطة، لكنها حملت من الأمل ما لا تحمله كتب الدنيا.

دعوة استجابها الله
واستجاب الله دعوتكِ يا أماه. وحملتُ البكالوريا. ونجحتُ. وتفوقتُ. وكانت فرحتي ناقصة لأنكِ لم تكوني هناك ترينني وأنا أرفع الشهادة.

لكنني كلما نظرت إلى ذلك الإطار اليوم، أتذكر مطبخكِ، وابتسامتكِ، وكلماتكِ: "العاقبة"... وكانت العاقبة خيراً، وإن غبتِ عن عيني.

فيا رب، اجعل هذا الإطار شاهداً على حب أماه لي، وعلى صبر أيام البكالوريا، وعلى فرحة جمعت بين الأقصى والنجاح.

وكلما ضاقت بي الدنيا، نظرت إلى الإطار، وتذكرت أن اسمي ما زال في الأقصى، وأن دعوة أمي ما زالت تسقي أيامي.

رحمكِ الله يا أماه، وجزاكِ عني خير الجزاء.

ثم أما بعد:

فلسطين هبي ولبي النداء
ففينا البيان لقدس الهدى
وليل الصهاينة لن ينجلي
سوى في حديث الدم والفدى

فلسطين: الأرض المباركة
فلسطين... الأرض التي باركها رب العالمين حولها.
أرض شهدت ميلاد الأنبياء ومحط رسالات السماء.
لكنها منذ نشأتها... كانت بلاءً على المعتدي، وشؤماً على الظالم.

لا يعرفها من اعتدى عليها إلا حسرةً وندماً. ولا يغادرها ظالم إلا وهو يحمل في قلبه لعنة التاريخ وغضب السماء.

ففي ترابها دفن الأنبياء، وفي سمائها عرج الرسول، وعلى ثراها سقطت دماء الصالحين لتُروي أرضاً لا تجف.

علمتنا فلسطين
علمتنا فلسطين الإباء.
زفت أعراس الفداء.
وهبت أزكى الدماء... فمن نكون؟

من نكون نحن إن تناسيناها؟
ومن نكون نحن إن تركناها وحدها تواجه الجيوش؟
ومن نكون نحن إن سكتنا ودماؤها تنادي؟

لا... لسنا من ننسى. ولسنا من نخذل. ولسنا من نغض الطرف عن حق ضاع.

بيت المقدس: بقعة من الجنة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
"مَن أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى بُقْعَةٍ مِنْ بُقَعِ الجَنَّةِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ"

وقال صلى الله عليه وسلم:
"وَلَيُوشِكَنَّ أَنْ يَكُونَ لِلرَّجُلِ مِثْلُ شَطَنِ فَرَسِهِ مِنَ الأَرْضِ حَيْثُ يَرَى مِنْهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا"

بيت المقدس... من جنة الفردوس.
نعم، يا رباه. بقعة من الجنة على الأرض، تنتظر من يعرف قدرها، ومن يرابط فيها، ومن يدافع عنها.

إن كان النظر إلى بيت المقدس يجمع لك الدنيا وأزاهيرها... فما بالك بمن عجَنَ بالدم طينها؟!
ما بالك بمن سقى ترابها بدمائه، ونثر فوقها أشلاءه، فصارت كل شبر فيها قصة، وكل حجر فيها شهيد؟

وصية المحب لمعشوقته
اغزل حبال الود معها صباحاً ومساءً... لتبقى عالقة في الأهداب.
اجعلها قبلة قلبك، وصلاة دمعك. انظر إليها... لا تغض الطرف عنها. فهي لك... هذا وعد الله!

انظر إليها... فرب نظرة تكفيك المواسم والفصول.
رب نظرة إلى بيت المقدس تمحو ذنوب السنين، وتزرع في القلب أملاً لا يموت.

احرسها بسهام قلبك وصهيل دمك... وإن بعدت المسافات.
لا تتركها وحدها. لا تتركها تواجه الطغيان وحدها. فهي تحتاج إلى كل نبضة في قلبك، وكل دمعة في عينك، وكل كلمة تكتبها أو تنشرها.

نداء للمولى من أعماق القلب
وقل يا رب...
لقد جعلتها ملء العين والبصر، وسيدة القلب. نقشتها في الكف وعلى أهداب العين. فبلّل شوقي ولا تتركني أبلّل المناديل وحدي.

قل يا رب...
أحنُّ إليها. فاشهد أنني بالقلب أتيت! وأنني أُرابط بعشقي، والعاشق يقبل ولا يدبر. لا يدير ظهره ويبقى عطر معشوقته بين يديه.

قل يا رب...
موجوع أنا بالقدس. البعد أثقلني، وهي على مرمى حجر. لا تجعل حظي منها بضعة حروف فقط. اجعل لي فيها نصيباً من الشوق والدعاء والرباط.
يا رب...

استفتاء القلب
استفتِ شيخك... بل استفتِ قلبك.
قل له: هل عليّ ذنب إن تقطعت بي الحبال، وبسهام الإخوة رُميت؟ ولم يبقَ لي سوى حروفي، أهشُّ بها على صبري وشوقي؟

لا ذنب عليك. فالحروف حين تكون صادقة، تهز عروش الظالمين. والكلمات حين تنبع من قلب محترق، تصنع ما لا تصنعه الدبابات.

فاكتب. انشر. تغنى بالقدس. اجعلها قبلة دعائك كل ليلة. فلن تضيع أرض يذكرها الأحرار في كل مكان.

حوار في الفندق: المثلث الأحمر وشهادة الأصدقاء الجدد
لا زلت أتذكر ذلك اليوم، بينما كنت في فندق أثناء قضاء العطلة الصيفية، إذ بي ألتقي بشخصين غربيين. فرحت عندما حدثاني، وفرحت أكثر عندما سألاني عن فلسطين والاحتلال. كان فضولياً صادقين، يبحثان عن الحقيقة بعيداً عن ضجيج الشاشات.

ثم سألاني سؤالاً دارجاً في الغرب:
"لماذا يقول المسلمون 'الله أكبر'؟ لماذا هذا الشعار الذي يخيف العالم؟"

فقلت لهما بكل هدوء وثقة، ونظرت في أعينهما:
"هل أنا أبدو لكم كإرهابي؟"

فأجاباني بحيرة واستنكار واضحين:
"لا... لا طبعاً."

فقلت لهما:
"إذاً، هذا ما يريده الإعلام الغربي الكاذب أن يوصله لكم. يريد أن يزرع في قلوبكم أن كل مسلم هو بمثابة إرهابي. ولكن دعوني أخبركم الحقيقة."

شرحت لهما معنى "الله أكبر" ببساطة:

"الله... يعني God. أكبر... يعني is the Greatest. فالمعنى كله: 'God is the Greatest'. هل في هذه الكلمة ما يخيف؟ إنها مجرد عبودية للخالق، وتذكير بأن هناك عدلاً في السماء حين يختفي العدل على الأرض."

ثم أضفتُ لهم بابتسامة واثقة، لأزيل كل شك من قلوبهما:
"نحن نصلي في اليوم على الأقل خمس مرات، كلما هممنا بالصلاة كبرنا. هذه الكلمة لا تخيف أبداً، إنها للعبادة. إنها بوابتنا للوقوف بين يدي الله، لا سلاحاً في وجه البشر."

ثم سألاني عن فلسطين، ورسما لي رمزاً من رموز المقاومة التي يروونها في نشراتهم: المثلث الأحمر. قالا لي: "لم هذا؟"
فأردفت عليهما بسؤال أعدتهما إلى فطرتهما الإنسانية قبل أي انتماء:
"تخيلا معي... تخيلا أنكما وعائلتكما جالسين في بيتكم. دخل سارق. لم يسرق فقط، بل قتل الأطفال والنساء أمام أعينكما. ماذا ستفعلان؟"
"أتستمعان وتتفرجان وتلتزمان الصمت؟"
"أم ستحاولان الدفاع عن العرض والشرف بكل ما أوتيتما من قوة؟"

طأطأ كلاهما رأسهما في تفكير عميق، ثم أجاباني دون تردد:
"نعم... سندافع. بالتأكيد."

فقلت لهما:
"هذا هو المقاوم. هذا هو المثلث الأحمر. ليس قتلاً للأبرياء، بل دفاع عن الأهل والعرض عندما لا يبقى أحد يدافع عنك."

ومنذ ذلك الحين، أصبحنا أصدقاء. بقينا دائماً على تواصل... ليومنا هذا. والحمد لله.

رسالة أحدهما لي يوم 21 أفريل 2026 الموافق لـ**4 ذو القعدة 1447 هـ**

فاجأني أحدهما برسالة لن أنساها. لم تكن رسالة عابرة أو مجرد سلام. أرسل لي مقطع فيديو لأطفال فلسطينيين، يحتجون على الاحتلال الذي أغلق مدرستهم. أطفال صغار، يحملون الكتب بدل الحجارة، يطالبون بحقهم في التعليم، بأبسط حقوقهم الإنسانية.

كتب لي صديقي الجديد ، بقلب مفطور، رسالة مفادها:
"ما يفعله الكيان المحتل فظيع... الحرية لفلسطين" .

ابتسمت... وفرحت.
ولكن دمعت عيناي في نفس الوقت. وبكيت.

بكيت لأن هذا كل ما يمكنني فعله. نشر. توعية. تحدث عن إخواني. بيان حقهم. فوالله، لو كان بيدي غير ذلك لفعلت.

فعليكم بفعل المثل يا إخواني. لا تعجزوا. لا تستسلموا.

وأنا أستغرب وينزف قلبي ألماً: كيف أصبح البعض عاجزاً عن مجرد النشر؟ بل وصل الأمر أن البعض ينقص من قيمة نفسه، أو يفعل ما يريده الصهيوني بلسان عربي، ويساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في خدمة أجندة الاحتلال.

لهذا أقول: رجاءً، حدثوا أصدقاءكم الغربيين.
واعلموا أنهم في نهاية المطاف بشر مثلكم. وأن أغلبهم كان ضحية للإعلام الغربي الكاذب، وبرامجهم التعليمية التي نعلم جميعاً من يسيطر عليها.

واعلموا أن الروح تعرف خالقها قبل كل شيء.

علموا أصحابكم: أبطالنا الحقيقيون
علموا أصحابكم القدامى والجدد... علموهم أن الإعلام الغربي قد كذب علينا، وزوّر التاريخ، وزيّن لهم الأباطيل.

سطر المؤرخون المزيفون أساطير وهمية كـ "باتمان" و"سبايدرمان"... أبطال لا وجود لهم إلا في الخيال، يقاتلون وحوشاً مصنوعة، وينقذون مدناً لا تعاني إلا من خيالات كاتبها.

أما نحن... فأبطالنا حقيقيون. أبطالنا من لحم ودم، عاشوا على أرضنا، وصلّوا في مساجدنا، ودفنوا في ترابنا.

أبطالنا هم صلاح الدين الأيوبي، الذي حرر القدس بيده، ودخلها ضاحكاً باكياً، وأعاد الكرامة لأمة كانت على موعد مع النصر.

أبطالنا هم عمر بن الخطاب، الذي تسلم مفاتيح بيت المقدس متواضعاً، فدخلها لا جباراً ولا متكبراً، بل عبداً لله يمشي على الأرض هوناً.

أبطالنا هم آلاف المجاهدين والشهداء والأحرار، الذين لم يكتب تاريخهم الإعلام الغربي، لأنهم لو كتبوا لانهارت الأكاذيب التي بنيت عليها حضارة زائفة.

فاسألوهم: أين باتمان يوم دُمرت غزة؟ وأين سبايدرمان يوم اقتحمت المساجد؟ وأين أبطالهم الخارقون عندما كان أطفالنا يُذبحون أمام أعين العالم؟

لا جواب. لأن أساطيرهم لا تعرف إلا الشاشات الفضية، أما أبطالنا فيعرفون الموت عن قرب، ويعرفون الدم، ويعرفون أن النصر لا يأتي من فيلم، بل من إرادة لا تلين.

فلا تطلبوا منا أن نعجب بخيالاتكم. فنحن لدينا من القدوة ما يكفي لملء الدنيا. ولدينا من العزة ما يجعل أساطيركم لا تساوي حبراً على ورق.

والله غالب على أمره... ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فلسطين: شعب الثورة لا شعب الخيانة
(من القدس إلى غزة، راية واحدة لا تنكس)
شعب فلسطين... شعب الثورة.

من القدس الشريف، إلى الضفة العذراء، إلى الداخل المحتل الصابر، إلى قطاع غزة العزيز الأبي... كلهم ثورة. ثورة لا تعرف الانكسار، ولا تبيع الضمير، ولا ترهن الكرامة.

شعارهم الذي رفعوه منذ الأزل، والذي سيرفعونه إلى الأبد:

"سَأَحْمِلُ رُوحِي عَلَى رَاحَتِي ... وَأُلْقِي بِهَا فِي مَهَاوِي الرَّدَى
فَإِمَّا حَيَاةٌ تَسُرُّ الصَّدِيقَ ... وَإِمَّا مَمَاتٌ يَغِيظُ الْعِدَى
وَنَفْسُ الشَّرِيفِ لَهَا غَايَتَانِ:
وُرُودُ الْمَنَايَا وَنَيْلُ الْمُنَى
وَما الْعَيْشُ لا عِشْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ
مَخُوفَ الْجَنَابِ حَرَامَ الْحِمَى"

نعم... هذا هو شعار الأحرار. وهذا صدق الثوار واخلاصهم. حياة تسر الصديق، أو ممات يغيظ العدا. لا ثالث لهما، ولا وسط بينهما.

التحية لمن يخلدهم التاريخ... وهم معروفون في السماء
كل التحية والتقدير... لمن سيخلد التاريخ أسماءهم، ولمن عرفت السماء قيمتهم.

فأراد الله ليشهد العالم أجمع صدقهم، وليزيدهم الله من فضله يوم ينفع الصديقين صدقهم.

أولئك الذين اصطفاهم الله، واختارهم ليكونوا شهداء، أو نصراء، أو صابرين مرابطين. لم يبيعوا وطنهم، ولم يرهنوا عرضهم، ولم يخونوا دينهم.

أما الخزي والعار لمن باع وطنه، وعرضه، وشرفه، ودينه. لمن وقف في صف المغضوب عليهم، قتلة الأنبياء والمرسلين.

ألا لعنة الله على الظالمين.

خريجو الغيتو: وهم أوهن من بيت العنكبوت
ألا علمتم... ألا علمتم جميعاً؟

أن هؤلاء السفاحين، قتلة الأطفال، خريجي معازل "الغيتو" ، لا يملكون لكم نفعاً. وأنكم وقعتم في فخ وهمهم، وتهتم في متاهة وهنهم.

ألا علمتم... ألا علمنا جميعاً؟

أنهم مجرد وهم، ووهن، أوهن من بيت العنكبوت. وبيتُ العنكبوتِ أوهنُ من أنْ يُحمَى، وهم أوهنُ من أنْ يُقدِموا.
فبيت العنكبوت يا قوم... لا يحمي من فيه. وهؤلاء القوم، لا يحمون شرفاً، ولا يدفعون ظلماً، ولا يغيرون واقعاً. هم كالسراب في القيعة، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

فكيف تعلقون آمالكم على من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؟ وكيف تنتظرون النصر ممن باعوا النصر قبل أن يحين؟

لا... والله لا يكون. فالنصر مع الصادقين، والغلبة للمرابطين، والعاقبة للمتقين.

فيا شعب فلسطين... أنتم الثورة. أنتم الصمود. أنتم الإباء.

لا تلتفتوا إلى خلفكم، فمن خلفكم جبناء لا يستحقون النظر. انظروا إلى الأمام، فالنصر هناك، والقدس هناك، والحرية هناك.

وما الحياة إن لم تكن في سبيل الله؟ وما الموت إن لم يكن في سبيل الحق؟

فإما حياة تسر الصديق، وإما ممات يغيظ العدى... وهذا هو شعارنا، وهذا هو عهدنا، وهذا ما نعيش عليه ونموت عليه.

والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وصلى الله على نبينا محمد، قائد الثوار، وإمام الشهداء، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قبل أن أمضي... هناك لحظةٌ ما، لا أنساها ولا تمحوها الأيام، شعرتُ فيها بفرحة لا توصف، فرحة تخالطها رهبة ووجع.

تلك اللحظة حين تحدثتُ مع الأستاذ محمود بصل، الناطق الرسمي باسم الدفاع المدني الفلسطيني، رجل عاش الموت قبل أن ينطق باسم الحق.

في تلك المكالمة القصيرة، شعرتُ بأن صوتي لم يعد ملكي وحدي. بل كان صوت قهر الشعوب المكلومة، صوت من ظُلِمُوا ومن خُذِلُوا، يندمج مع تواضعنا واهتمامنا الصادق. كأن كل جرح في غزة، وكل دمعة يتيمة في فلسطين، وجدت طريقها إلى حنجرتي لتصرخ عبر الهاتف.

فلم يبق لنا إلا الدعاء، إلا الحب، إلا أن نكون معهم بقلوبنا حين تعجز أيدينا.

وكأن الله أراد في تلك اللحظة أن يجمع في اتصال واحد نبض أمة بأكملها، نبض من صَمَدُوا ومن تَأَلَّمُوا ومن حلموا.

فالله غالب على أمره، وإن كنا لا نقوى إلا على أن نحب، وأن نكون معهم بقلوب لا تعرف الخذلان.

الطوفان الأخير: ليلة المعمداني وطفلة شجاعة لا تخاف
(لن أنسى يا أماه)
وفي الطوفان الأخير... عندما اشتد القصف على أرض العزة غزة، في شهر أكتوبر، مع بدء القصف الهمجي على المستشفيات...

لن أنسى تلك الليلة. لن أنسى تفاصيلها.
ليلة مجزرة المعمداني التي صرخ فيها الضمير الإنساني قبل أن تندثر الجدران. وما تداول في الإعلام بعد يوم من الحادثة، بفضل أبطالنا الحقيقيين... صحافيونا الأحرار.
تحية لهم. حفظ الله من بقي على قيد الحياة، ونجا بفضل رب العباد من الإبادة، وكتب له الله عمراً جديداً.
ورحم الله الشهداء وتقبلهم في عليين مع النبيين والصديقين.

اتصال الخال وأماه بعد ليلة الرعب
لن أنسى يا أماه... تفاصيل اتصال خالي بكِ بعد تلك الليلة.
كنتِ تنظفين البيت، والهاتف بين يديكِ. تحدثتما طويلاً، وتناولتما الحادثة، وتشاركتما المشاعر. وأنتِ يا أماه كنتِ تتابعين الأخبار مثلي، بل كنتِ تسبقيني أحياناً. وقلتِ لخالي:
"خليل يتابع التفاصيل... يخبرنا بكل جديد لحظة بلحظة" .

وكنتِ يا أماه... غاضبة، حزينة، ثائرة. وقلتِ كلمتكِ التي لن أنساها أبداً:
"حرقوا المستشفى... الله يحرقهم" .

نعم يا أماه. دعوتِ عليهم من قلب أم لا يطيق رؤية الأطفال يُذبحون. والله لا يرد دعاء المظلومين، ولا يضيع أجر الثائرين.

وخلال أيام الحرب على غزة، كنتُ كلما هممتُ بتسجيل مقطع فيديو لأنقل فيه معاناة أهل غزة، وجدت أماه خير سند. كانت تمنع أي أحد من الدخول عليّ أو الإزعاج، وتقول: 'خليل... خلوه قاعد يسجل'.

فكانت تؤمن بأن الكلمة سلاح، وأن من يساعد على نشرها مجاهد. فشكراً لكِ يا أماه، وجزاكِ الله عن فلسطين خيراً.

واللهم اجعلها شريكتي في الأجر كلما شاهد أحد فيديوهاتي عن فلسطين، وكلما تأثر أحد بكلماتي، وكلما تحرك ضمير إنسان. اللهم تقبل منها دفاعها عن غزة بلسان ابنها، واكتب لها من الأجر مثل ما كتب لي، إنك على كل شيء قدير.

الطفلة ماريا الحسني: أسطورة لا تشيخ
ولن أنسى يا أماه... عندما شاركتِ مقطعاً في مواقع التواصل الاجتماعي لتلك الطفلة البطلة: ماريا الحسني.

طفلة فلسطينية، تحدثت بأعجوبة، فجعلت العالم كله يصغي إليها. قالت بثبات لا يعرفه إلا الأبطال:

"أنا ماريا الحسني... بنت إياد الحسني القائد. أنا أحبه كثيراً، وأنا قوية كثيراً. أقوى من كل اليهود."

"هم اليهود فرحانين عشان قتلوا بابا. هم بيفكروا أنهم مبسوطين كثير... هم... بابا طلبها ونالها. هو مبسوط كثير. هو بالجنة."

"وأنتم لما تروحوا عالنار، خليكوا تذوبوا. مش خايفة منكم، لأنكم جبناء. لو ما غير سلاحاتكم... لكان أنتم مستواكم كثير واطي. أنتم ما تعرفوش أصلاً إيش معناتو الله."

"احنا بنصلي بالأقصى. وبابا هو شهيد. وراح نصير أقوى. وراح نصلي بالقدس. وراح نظل نقصفكم ونحاربكم لحد ما نحرر أرضنا. لأن هاي أرضنا ولازم نتمسك فيها."

"وأنتم ما راح نخليكم فيها. واذا لمسوا بس حجرة منها... احنا راح نموتكم."

نعم يا أماه... طفلة فلسطينية واحدة، أشجع من كل صهيوني محتل. طفلة فقدت والدها، فلم تبكِ عليه، بل رفعت رأسها وقالت: "هو في الجنة".

أثارت كلماتها إعجاب العالم أجمع. وأثارت إعجابكِ أنتِ أيضاً يا أماه.

طلبتِ مني أن أرسل لكِ المقطع... حفظته لكِ. كنتِ تريدين أن تسمعيها مرة وأخرى، لأن فيها من العزة ما يملأ القلب قوة.

لن أنسى أبداً هذه التفاصيل يا أماه...

أه.. أه.. أه.. يا للوجع.

يا لوجع قلوبنا على غزة. يا لوجعنا على الأطفال الذين أصبحوا شهداء. يا لوجعنا على الطفلة التي كبرت قبل أوانها.

لكن رغم الوجع... هناك أمل. هناك ماريا. هناك أمثالكِ يا أماه الذين لا يرضون بالظلم. هناك صحافيون أحرار يخاطرون بحياتهم لينقلوا الحقيقة. هناك أبطال حقيقيون لا يبيعون ضمائرهم لأحد.

فاللهم احفظ أطفال فلسطين، وارحم شهداءهم، واجبر كسرهم، وحرر قدسهم. اللهم اجعلنا معهم في الفردوس الأعلى، واجمعني بأماه وبهم جميعاً تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك.

رحمكِ الله يا أماه، وجمعني بكِ وبماريا ووالدها وجميع شهداء فلسطين في جنة عرضها السماوات والأرض.

ليلة استشهاد الصادقين: حين تزلزل القلب ولم يتزعزع اليقين
(وكنت أحاول أن أكون شجاعاً)
أتذكر يا أماه... بعد استشهاد شخصية مهمة في القطاع. شخصية أحبت الله، وأحبها الله، فأحب الله لقاءها.
شخصية خالصة، صابرة، صادقة مع المولى عز وجل.

تلقيت أول أنباء ذلك الخبر بينما كنت في الكلية. إذ بزميلي سيف - وأرسل له هنا تحيتي وأنا أكتب هذه الكلمات - أراني الخبر وسألني مستغرباً:
"من هذا؟"

فقلت له باستغراب، ونحن في وسط الحصة:
"ماذا؟ من هو؟"

فقال لي ببساطة موجعة:
"هو ذلك الرجل".

فقلت له: "لا... مستحيل!".

وبينما كنت أرسم على وجهي لوحة الصبر، كانت داخلي ترتعش مشاعري كأوراق الخريف. حاولت أن أتمالك نفسي، أن أبدو قوياً، أن لا ينكسر صوتي. لكن داخلي كان يصرخ.

في الطريق إلى البيت
وبعد ذلك، قبل العودة إلى البيت، ذهبت مع أبي. وأخبرني أبي أيضاً بالخبر. وكانت الشاشات في المقاهي كلها تتحدث وتتناول ذلك الخبر.

وأنا، يا أماه... كنت أحاول أن أكون شجاعاً، صابراً، أمام أبي. كنت أبتلع ألمي، وأخفي حزني، ولا أريد أن أراه منكسراً فيزيد انكساره.

وكنت على يقين أن الله سيبطل مخططات المحتلين... ولو بعد حين.

ليلة صعبة وعسيرة
وعندما رجعت أخيراً إلى البيت في الليل... كانت ليلة صعبة، عسيرة.
فالتفتُ إلى شاشة هاتفي تارة، وإلى التلفاز تارة أخرى. ولسان حالي يقول: يا ترى...
"يا ترى... ما حال الجماعة بعد هذا الخبر؟"
لكن هيهات... هيهات. والحمد لله.
فلهم مولىً عز وجل يرعاهم. فالحمد لله ناصر المؤمنين والمستضعفين... ولو بعد حين.

فيا رب، تقبل شهداء فلسطين، وأسكنهم الفردوس الأعلى. وثبت قلوبنا على الإيمان والصبر واليقين بأنك غالب على أمرك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ويا أماه... كنت أحاول أن أكون شجاعاً، كما علمتني. وكنت أتذكر قولك: "الصبر يا بني... العاقبة للمتقين". فصدقتِ يا أماه. والحمد لله على كل حال.

أه... يا للوجع... ولكن لله الأمر من قبل ومن بعد.

ختاماً، لنختم بما قال حذيفة الروح رحمه الله:
"يخلف القائد قادة، والجندي عشرة، والشهيد ألف مقاوم. فهذه الأرض تنبت المقاومين كما تنبت الزيتون، وتورث الإباء للأجيال كما ورثته من آلاف الأنبياء والصحابة والصالحين والمجاهدين الراقدين في ترابها المقدس."

الفتح الحقيقي... لا يحتاج إلى دبابات.
والتحرير الحقيقي... لا يحتاج إلى ظلم جديد.
والعدل الحقيقي... يبدأ عندما تخشى أن تظلم حتى وأنت المنتصر.

فصل: من وحي الخيال
(حلم التحرير وراية التوحيد)

أيا ليتني كنتُ صلاحاً... فيُصلح بي رب العباد كما أصلح من قبل صلاحاً.

فنُؤتيه براية التوحيد، وبيت المقدس نُحرر، وسرايانا في أقصانا نُصبح ضيوفاً عند شعب الضيف.

وليكن السيف قبال السيف... فيباهي بنا ربنا ملائكته
وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ

يا ليتني كنت صلاحاً
نعم... يا ليتني. يا ليتني كنت ذلك الفارس الذي يركب صهوة الحلم، ويحمل راية لا تنكس، ويسير نحو القدس كما سار الأوائل.

صلاح الدين لم يكن واحداً. صلاح الدين كان فكرة قبل أن يكون رجلاً. كان أملاً في قلوب الملايين قبل أن يصبح سيفاً في يدٍ واحدة.

فلم لا نكون كلنا صلاحاً؟
نحن، كلنا، بنبضنا ودعائنا وكلمتنا، نستطيع أن نصنع من الحلم واقعاً، ومن الخيال فتحاً مبيناً.

راية التوحيد في سماء القدس
أحلم يا أماه... أحلم أن أرى راية التوحيد ترفرف فوق قبة الصخرة.
أحلم أن أسمع الأذان فيها بلا خوف، وأن أرى الأطفال يلعبون في أزقتها بلا وجع، وأن أزورها مرفوع الرأس، ضيفاً مكرماً، لا خائفاً ولا مستجيراً.

أحلم أن يكون بيت المقدس كما وعد الله: قبلة أولى، ومهبط وحي، وأرض حشر ونشر.

أحلم أن يقول المؤذن فيها: "الله أكبر"، فيجيبها الجندي: "الله أكبر"، ويرددها الحجر: "الله أكبر"، وتصدقها السماء: "الله أكبر" .

ضيوفاً عند شعب الضيف والسيف
ونكون هناك... ضيوفاً لا غرباء. نأكل من ثمرات جنين، ومن خيرات نابلس العطرة، ومن زيتون طوباس المبارك. ونشرب من عيون طولكرم التي لا تجف، ومن مياهها العذبة التي تروي أرواحنا قبل أن تروي أجسادنا، كأنها سلسبيل الجنة نزلت على أرض فلسطين.

ونزور بيت لحم، مهد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام.

ونمشي على شواطئ عروس البحر يافا، يافا التي قهرت نابليون وكسرت حلمه على صخرها. ونرفع الرأس في حيفا، حيث البحر والجبل يتعانقان كعاشقين لا يفترقان.

ونقف في عسقلان، عروس الجنوب الجميلة، تلك المدينة التي ذكرها خير المرسلين وسيد الثقلين، نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، حين تحدث عن رباطها وخيرها. عسقلان التي كانت بوابة الشجعان ومهوى أفئدة العشاق فكل حجر فيها يروي قصة، وكل شبر فيها يحكي مجداً، وكل مدينة فيها تستحق أن تكون قبلة للأحرار.

شعب الضيف... شعب فلسطين، شعب كنعان.
هو الذي استضاف الأنبياء، واستضاف الأحلام قبل أن تستضيف الجيوش.

والسيف... سيف الحق.
ليس سيف غدر، ولا سيف ظلم، بل سيف يشرعه الأحرار ليدافعوا عن مقدساتهم، وعن أرضهم، وعن كرامتهم.

قبال السيف... نقف.
لا نخاف، ولا نتراجع. لأننا نعلم أن النصر مع الصابرين، وأن العاقبة للمتقين، وأن الأرض ستعود إلى أهلها كما يعود الماء إلى مجراه.

ربنا يباهي بنا ملائكته
أتخيل يا أماه... ربنا جل وعلا، يوم التحرير، يباهي بنا ملائكته:

"انظروا إلى عبادي... آمنوا بي قبل أن يروا نصرتي. صبروا على أذاي، واستشهدوا في سبيلي، ثم لم ييأسوا. وها هم اليوم... يحررون قدسي بأيديهم ودعائهم" .

وترد الملائكة: سبحانك لا إله إلا أنت. إنك أنت العزيز الحكيم.

"ألا إن الله غالب على أمره" ... هذا وعد الله. لا يخلف الميعاد. مهما طال الليل، فإن الفجر آتٍ. ومهما اشتد الألم، فإن الفرج قريب. ومهما تكالب الأعداء، فإن النصر حليف الصابرين.

"ولكن أكثر الناس لا يعلمون" ... يظنون أن النصر بالعدد والعتاد. ويهو أن النصر بالإيمان والصبر. يظنون أن القدس ضائعة. ولكنها في قلوب المؤمنين لن تضيع أبداً.

مقولة صلاح الدين الخالدة
وهنا أتذكر قول صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، بعد تحرير بيت المقدس:
"لن يرجعوا إليها ما دمتم رجالاً" .

نعم يا أماه... "ما دمتم رجالاً".
فالرجولة ليست عضلات، الرجولة إيمان وثبات وعزة. الرجولة أن تقف مع الحق مهما كثر الباطل.
الرجولة أن تحلم بالقدس وأنت في أقصى الأرض، وأن تسعى لتحريرها بكل ما أوتيت من قوة.

فإن كنا رجالاً... سنحتفظ بها. وإن كنا رجالاً... لن يجرؤ أحد على المساس بها. وإن كنا رجالاً... سنورثها لأبنائنا حرة أبياً كما ورثها الآباء من قبل.

فيا أيها الأحرار... كونوا رجالاً. فالقدس تنتظر رجالاً لا يخافون، وأحراراً لا يتراجعون، ومؤمنين لا يبيعون عهد الله بثمن بخس.

فيا رب... إن كنتُ لستُ صلاحاً، فاجعلني نصراً له. وإن كنتُ لستُ محارباً، فاجعلني داعياً. وإن كنتُ لستُ شهيداً، فاجعلني مؤمناً بحتمية النصر.

ويا إخوة الإيمان في كل مكان...
كونوا صلاحاً في بيوتكم، في كلماتكم، في دعائكم، في نشركم. فالتحرير يبدأ من القلب قبل أن يبدأ من السيف.

وسنحلم... وسنحقق. وسننتظر... وسننصر. وسنصلي في القدس حرةً بإذن الله، ولو بعد حين.

اللهم آتِ القدس فجرها، وآتِ فلسطين نصرها، وآتِ المؤمنين فرجهم. إنك على كل شيء قدير.

وصلى الله على نبينا محمد، قائد الفاتحين، وعلى آله وصحبه أجمعين.